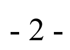
الغـربـــاء

- رواية -



رابح خدوسي

الغـــــرباء

- رواية -

الجائزة الأولى في مسابقة " إقبال" بالجزائر 1992م

الطبعة الثالثة
2017

منشورات الحضارة

الإيداع القانوني: 2011-3989

ردمك: 978-9931-753-00-1

منشورات الحضارة

ص. ب 04 (A) **بئر التوتة – الجزائر**

هاتف/فاكس: +213 23 31.77.73

البريد الالكتروني:
kheddoucir@yahoo.com

❶

البحث عن الذات...

الرحلة مستمرة رغم كل شيء، ، رغم المتاعب والمصاعب، فالقطار يطوي المسافة الطويلة شيئا فشيئا ، معانقا السفوح تارة ومخترقا الجبال أو معتليا الجسور تارة أخرى..

الأفكار والخواطر تولد في هذا البال المشحون بزفير الزمن الجائر، ، ، البال الذي يرسل البصر من نافذة القطار،

مستنطقا المشاهد العابرة، ، أفكارها تتداعى متتالية كتتابع الأشجار على جانبي الطريق، ، سألت نفسها في حيرة:

- ما قصة هذه المناظر التي تتراقص مضطربة كأن بها مسا من الجن؟

- هل يصيب الجنون النبات. أم أنه حيرة العقلاء فقط؟

- ما هي حقيقته... ثم ما هي الحقيقة نفسها؟

- هل هي وهم ينكشف عند نهاية الوهم؟؟

أرهقتها التساؤلات، فأنقذها منظر جديد لبناية فخمة على بعد قريب من ممر القطار، فقالت في نفسها:

- هذا قصر تحلق حوله الأكواخ فمن يكون هذا الرب الصغير ومن أي جنس هؤلاء العبيد؟

ثم أردفت:

- الجاهلية حضارة بائدة يعتز بها الأشرار في أي عصر...

وامتدت أفكارها امتداد المسافة التي يقطعها القطار، بل امتداد الزمن الذي يقتطع من شبابها الجزء السعيد...

- إني مسافرة وحدي، ، ، هل أنا حرة؟

- من دفعني إلى التّرحال، الرذيلة أم الفضيلة؟

الأولى لعبة بين الشيطان والإنسان والثانية مبارزة انتصر فيها الحق على الشيطان. إذن إني مسافرة لأبحث عن الحق الذي دفن حيا....

- هل سينبت بعد حين؟

- أجل، فالحق يعتريه شحوب لكنه لا يموت، لقد قال ذلك الأستاذ في الأيام الخالية..!

حاصرتها مناظر الطبيعة المتسائلة فحولت نظرها إلى داخل القطار في المكان المجاور لها لتلقي بصرها على جريدة:... (طبائع البشر) فأمعنت النظر لتشبع فضولها بما هو مكتوب أسفلها، فقرأت هذا الحوار:

سأل الطفل أباه:

- هل صحيح يا أبي أن الأرض هي أمنا الأولى ؟

- نعم يا بني، منها خرجنا وإليها نعود... يصمت الابن متأملا بينما يواصل الأب جوابه قائلا:

- ثم إنها تطعمنا وتسقينا وتسترنا في نهاية حياتنا.

فسأل الطفل:

- لماذا نتبول عليها، إذا ؟

الأب بحسرة:

- هذه طبيعة البشر، ينكرون الجميل...

وبعد حين سأل الطفل أباه:

- وما هي السماء يا أبي ؟

الأب:

- إنها غطاء يستر جرائم البشر عن سكان الكواكب الأخرى.

رفعت سكينة بصرها عن الجريدة لتشرد طويلا، تذكرت الخطوات الأولى لرحلتها عندما عجزت عن التحكم في مقاومة انهيارها النفسي، قالت تطمئن نفسها بعد حين:

- إن أقوى قائد يعجز عن قياد نملة في المسار الذي يريده... فما بالي حزينة لعدم قيادة نفس عاتية...

استرجعت الأحداث مرة ثانية رأت نفسها تخرج من دار العدالة، صوت القطار يقودها في اتجاه المحطة القريبة، رجلاها تجران الخطى الحزينة المثقلة بالهموم والدمع يغسل وجهها بفيض من الندم:

- جنيت على نفسي بيدي، منذ أن تركت الصلاة انحطت أفكاري وسلوكي، صرت أتفه إنسان، بل أرذل امرأة على وجه الأرض، ليتني لم أولد، لم أتعرف على إنسان، لم ألتق بالوغد "هفمان"، ليتني مت قبل هذا وكنت... عفوك يارب.

كادت أن تغيّر عزمها على الذهاب إلى حيث لا تدري، لكنها تذكرت قرار المحكمة 242 وعصير (الفانتا...) وشاطئ البحر بملاهيه،،، فأظلمن الدنيا في عينيها ثانية، وركبت أول قطار صادفته في المحطة ينادي مرحبا ومستعجلا...

ابتلعها القطار وبدأ يتباعد رويدا رويدا، فغابت معه... سافرت في رحلة لا تعرف نهايتها، وفي قطار تجهل اتجاهه... الرحلة طويلة في مدى الأحلام وامتداد الألم، وسكينة في شبه

غيبوبة لا تعي من الواقع غير شيء واحد، هو الخسران الذي ختم علاقتها بعدنان النفطاوي زوجها الذي عجز عن مساعدتها على الوقوف من سقوطها القديم...

❧❧❧❧ ⇧⇧⇧ ❧❧❧❧

الأيام والسنون تمر والأم بائسة حزينة، لقد تراكم الشوق وامتدت خيوط اليأس في وجدان هذه الأم التي لم تعلم من أخبار ابنتها شيئا، ثماني سنوات مضت. لم تنسها تلك المدة التي طوتها من صفحات الزمن... ابنتها ومعاناتها في مسرحية العذاب، فتجلت الأحداث على وجهها الوقور، الذي عانق الألم منذ بداية القصة التي ولدت قصة جديدة، كان بطلها هذه المرة قطعة جديدة من كبد الأم الجريح، قطعة متحركة، ماشية في شكل بشري، تسمى (كمال).

اهتز جسمها النحيف في رقصات غجرية سريعة، ثم هوت على ابنها كمال محتضنة إياه في لهفة شديدة، لا تطيق الابتعاد عنه، رغم محاولات الحاضرين في ذلك، تشبثت بملابسه، تمسك به وهو يغادرها إلى الدار الأخرى بوسيلة سريعة للاختفاء، أسبق من قطار سكينة شقيقته، هل تحت الشمس قلب امرأة يتحمل ما تحمل قلب هذه الأم التعسة ؟! ما أصعب أن ترى أم ابنها البكر يذبح في حجرها !

كانت قبل ساعة تعيش نوعا عجيبا من الهدوء النفسي، وهي تحضر طعام العشاء، هاجس داخلي مبهم يحثها على

التحرك والتأمل مرة، بينما كانت الابتسامة الحزينة تفترش محياها في كبرياء وشموخ وتحد للزمن مرة أخرى. انتقلت بين الغرفة والمطبخ في خفة الطير، بل كأنها فتاة اعتراها زهو غامر في مقتبل العمر، بهجة غريبة زارتها هذا اليوم لم تجد لها سببا... كأن القدر يلاعبها قبل إعدامها كما يلاعب القط الفأر قبل أكله والقضاء عليه.

سألت نفسها في استغراب والدمع يغسل وجهها بفيض من الندم:

- ما السبب الذي فجر هذه الطاقة في وجداني الليلة، و"هفمان" هذا، ماذا يحمل وراءه من أخبار؟

- هل بحث عن سكينة كما وعدني المرة الماضية؟!

كان يجلس متصدرا الغرفة، شاب في الثلاثين من العمر، طويل القامة نحيف الجسم، تسبح عيناه الزرقاوان في أمواج صافية تبدي فطنة وذكاء، وتخفي دهاء وأشياء أخرى، بشرته الشقراء وشعره الأملس وتصرفاته الخاصة توحي بنسبه الأوروبي، وبرودة دمه تثبت حقه في ميراث الانجليز...

اعتاد "هفمان" زيارة البيت قبل رحيل صاحبه، كان كل مرة يحمل حقنة يضعها في جسم الأب لتهدأ ثورة أعصابه، ولم

يفتأ المرض "هفمان" يلاعب كمال... مداعبا إياه حتى تكونت بين هفمان وصاحب البيت صداقة ظاهرة. فصار يزور البيت دون استئذان، بمناسبة أو بغيرها. حاول ملاطفة سكينة وإغراءها بالسلسلة الذهبية المعلقة في عنقه، تراه يداعب السلسلة بشعر صدره المعصفر ثم يضع الصليب الموجود بها في فمه مقبلا إياه في ابتسامة ماكرة، لكنها تصد عنه في نفور، لاجئة إلى ضفة أخرى.

ﬡﬡﬡﬡ ⇮⇮⇮ ﬡﬡﬡﬡ

الظلام يتسلّل إلى أركان الغرفة شيئا فشيئا، والفكرة تنمو في ذهن كمال وتتمحور في مضامين شتى، ظل يومه مستسلما للشرود. يستعيد صورة أخته سكينة مع هفمان، وجارتهم(نجمة) في يوم مرت عليه بضع سنين، كانوا يختفون خلف أشجار المركب السياحي التي كانت تمثل عقودا متتالية من الزمن، بينما تمدد هو على الرمل يصارع الدوار...

قبل العشاء نظر كمال صوب هفمان نظرة شزراء وخرج متداعيا في خطى ثقيلة إلى الشارع، اقترب من صندوق البريد الموجود قرب مقر الجامعة العربية، وضع فيه رسالة وعاد إلى البيت...

وضع خطوته الأولى على شجرة الجوز التي تتربع على ساحة الدار، وهو يسترجع آخر نشرة للأخبار سمعها من المذياع الصغير الذي يلازمه كظله. حلم يقظة داهمه... فرأى (كمال) نفسه تسبح في أحواض الصحراء النفطية تحاول إنقاذ فقاعات سوداء من الغرق في مياه الخليج الساخنة، لكن دون جدوى... ثم طارت محلقة على بساط من دخان القذائف إلى الجبال المعممة بالثلج الأبيض، الملتحية بأشجار الأرز، وبدأت ترقص

مع الأشلاء على أنغام الرصاص، وزغردة البارود في عرس الدم على ضفتي نهر الليطاني في لبنان، ثم حمل على ظهره ملايين الأطنان من الأحجار الهقّارية ووزعها على أبابيل فلسطين...

لم يفكر كمال في البحث عن طبيب لنفسه المصابة بنزلة البرد الشديدة التي زارته في وضح النهار دون حياء.

قال:

- ما أشدّ وجه التناقض بين حرارة الخليج وثلج لبنان، وما أكثر المرضى على فراش المحن والأمراء غائبون في تربص مغلق... على الموائد المستديرة بملاهي الغرب يشرّحون الحسناوات بأدوات من الذهب الأسود...

تذكر كمال وفاة أبيه الذي سقط من فوق جواده فجأة... فانهمرت دموعه تسكب آلام طفولته المعذبة وبداية شبابه الذي قضاه في البحث عن أخته سكينة، وقلبه الجريح لفراق طائره الذي تعلم في مؤانسته معنى الحياة...

فقال في نبرات حزينة ورجلاه تتسلقان الشجرة:

- ذهب أبي صدفة من غير رجعة وغابت سكينة دون وداع وكناري مأسور في قفص الأعداء، وأمي في أمعائها يحرق الدم ... ولا أستطيع إنقاذها.

- لمن أعيش؟ لمن أعيش... والجراح في القلب ولا أستطيع تضميدها، والخناجر في الظهر ولا أستطيع نزعها، والدماء تنزف ولا أستطيع وقفها، ، تفتت حبال أمله تحت مطرقة القنوط واليأس، بدا له طيف أبيه أمامه محذرا:

- "لا تهرب يا كمال، لا تكن جبانا يا عزيزي كيف تنسحب قبل نهاية الجولة! لا تترك الحماقة تقودك من دنيا العذاب إلى عذاب أكبر في الآخرة، ، ، "

أوراق الشجرة تهتزّ في رعشة خفيفة كأنها تتوقع إعصارا قادما يهوي بها على أديم الأرض... العصافير غادرت أعشاشها منزعجة، كأن السماء أمطرت بوابل من أحجار الأبابيل. الدموع المترجرجة تمزق فتور خدّيه وتبدي له المناظر قاتمة، مظلمة كظلام مدينته الصغيرة من فقدان نور الكتب والصحف... اسودت الدنيا في عينيه رغم كثرة مصابيح الطرقات التي كانت تقترب منه بأشعتها المنبعثة كالسهام

المفلتة، بينما كانت النجوم تعانق ألمه في حنان، تتلقف بصره حائرة وترسل من حين لآخر إشارات كأنها منارات تودع بضوئها سفينة غالبتها الرياح.

أحسّ كمال بالقمم الشاهقة تحاصر كيانه المحطم وسكان الكون ينبذونه من محيطهم. لاحقه نداء داخلي:

- وأمك، ، ما ذنبها ؟

- لها رب يحميها.

تمايل برأسه متجنبا الأغصان الصغيرة التي بدت له كرؤوس أفاعي تطارده عندما كان يوثق الرباط بيدين مرتعشتين... نبضات قلبه السريعة تدق في عنف وهو يمسك الحبل، ثم الحلقة المتدرّجة في تقلصها شيئا فشيئا...

اهتزّ كيانه كأنه مصدر إعصار في ليلة ثائرة وسأل نفسه:

- هل الشجاعة في الإقدام أم في التراجع؟

لم ينتظر جواب عقله... كما أن صوت الأغصان الصغيرة وهي تتكسر في ارتياع لم يترك لأذنيه سكونا لتسمعا نداء أمه:

- كمال، العشاء جاهز يا بني، تعال.

صوت الألم يقتحم البيت، أعماق كمال تبعث صرخة التعلق بالحياة، إنها الاعتراف بقيمة الشيء بعد ضياعه...

أراد إنقاذ عنقه من الحلقة فلم يستطع، سقط منه المذياع ونشرة الأخبار تقترب من النهاية...

خرجت الأم... يتبعها "هفمان" إلى فناء الدار يبحثان عن مصدر الصوت، كانت تهرول في خطى عشوائية تفتش في مملكة الرحمان عن قطعة عزيزة من كبدها:

- كمال، ما بك يا ولدي؟ أين أنت في هذا الظلام؟

- تسمر رجلاها في الأرض فجأة، وتجمد الدم في عروقها، جبينها يصطدم بقدمين متدليتين أسفل الشجرة، صرخت والصدمة تقطع فؤادها إربا إربا...

تلمست رجليه بأناملها... فعرفت بقلب الأم أن طائرها بين الحياة والموت...

- ما أقسى الزمن! ما أصعب اللحظات! لم تكن تلك اللحظات التي كان كمال يعالج سكرات الموت خلالها ويردّد

أنفاسه الأخيرة كنفحات الحياة التي تنعش الأموات أو ساعات الموت التي يعيشها بعض الأحياء، بل كانت أشياء أكبر من ذلك، لا يحتمل عقل البشر تصورها إن خطرت على باله.

جرى "هفمان" يبحث عن وسيلة لقطع حبل المشنقة، فقد توازنه مرات كثيرة وهو يحاول صعود الشجرة التي كانت تبدو له متشامخة كجبال الهملايا،،، وانقطع حبل الأخبار التي كانت تنبعث من المذياع فجأة، ليعلن المذيع قائلا:

- أول رائد فضاء عربي يزور القمر ويؤدي الصلاة على المركبة.

"هفمان" يتسلق شجرة الجوز ويقطع الحبل، فينزل كمال من الجو، لقد آن الأوان للفارس أن يترجل أيتها الأم التعسة...

وجد حضن أمه يستقبله كلحظة ميلاده، غير أن الحركة كانت تودع جسمه في صمت، ودموع ميلاده تمتزج بدمع وفاته، والتحقت روحه بربها متجاوزة في لمح البصر الفضاء بقمره ومريخه ومجموعة الكواكب والمجرات الأخرى، الأمل الوهمي في أعماق الأم لم ينتحر، لم تصدق الحقيقة، قالت في توسل هيستري:

- الطبيب، الطبيب أحضروه..

فقال المذيع في نبرات يائسة:

- لا زالت جلسات مؤتمر القمة متواصلة... في انتظار الولادة القيصرية لمبايعة الأمير المولود، ، لكن الوفود مختلفة حول تسمية المولود الجديد، وبما أن عدم الاتفاق يجمعهم، فقد اعتصم الجنين برحم أمه إلى الأبد...

- كم من إنسان جميل الخلق حسن الصورة يبيع نفسه للشيطان في متجر الحياة. بأسعار بخسة تنشرها وسائل الإعلام التي تحاصر الأفكار وتدمرها، القلق والاضطراب النفسي نبتا في نفس بريئة فسقتها وسائل الإعلام بل الإعدام صباحا مساء حتى امتد حقل اليأس... وصار كأنه سهل خال من الأشجار الطيبة، من الكلمة التي يفوح منها الإيمان، وما أشد قسوة الإنسان إذا طغى أو أراد الانتقام من نفسه، يقدمها للنار هدية ولا يبالي.

حدّث أحد الجيران نفسه بهذه العبارات وهو يحمل "كمال المنتحر" إلى داخل البيت تاركا صوت المذياع في الخارج المظلم. يمتزج بالدجى في موال أغنية حزينة تردّد صدى أنغامها في

أعماق الحاضرين ((نار.. نار... يا حبيبي نار)) لا تعرف الأم غير النحيب رثاء، لم تقل الحمد لله الذي شرفني بقتله... لم تكن كالخنساء، فلم ترثيه شعرا أو تؤبنه نثرا، لكنها قالت ولوعة الفراق تفتّت فؤادها وهي تقبل كومة التراب على قبر وحيدها:

- سامحك الله يا بني، يا من قتلتني وأنا على قيد الحياة، فالأشجار تموت واقفة.

مأساة كمال الرهيبة الذي طلّق حياته في لحظة ضعف وسّعت الجرح الذي رسمه غياب سكينة، فابتسم الجرح من جديد في قلب امرأة تحمل لقب "الأم" بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان أصيلة، أم غربها الأطلسي وشرقها الهادي... قلبها القدس وعقلها كمال وشرفها سكينة ووو...

تساءلت بأفكار منهمرة:

- هل انعدم كمال من الوجود فعلا؟

- هل مرّ عليه حين من الدهر فأصبح نسيا منسيا، لا أصدق، لا يحتمل عقلي ذلك.

ثم تنتبه لواقعها الشاهد على الحقيقة الصارخة:

- لكن هذا قبره الذي يستريح فيه، وقد رأيت الناس بعيني يحملونه من البيت على الأكتاف (ثم تتذكر ابنتها سكينة)...

- آه، أين أنت يا سكينة لتقولي الحقيقة؟ هل مات كمال أخوك حقا ؟.. لماذا لا أبحث عنه بنفسي في هذا العالم الضائع.

- سأفعل ما فعلت المرأة اليابانية التي أخبرني طائري الراحل بقصتها. لقد اقتحمت الكوخ الملتهب لتبحث عن صبيها والدم القاني يتدفق من وجهها باكيا مأساة الإنسانية على أطلال (هيروشيما).

- آه... يا كبدي، دربتك على المشي ولما جريت هجرتني، يا كمال، لم أكن أعلم أن القتال الذي حدّثني عنه من هذا النوع، قتل النفس نفسها، يبيعها للشيطان في سوق النخاسة، ألم تعلم بأن الله اشترى أنفس المؤمنين المقاتلين في سبيله بأن لهم الجنة.

- ماذا تقول لـ"سناء" التي حدثتني عنها كثيرا، هي اقتحمت الأعداء بسيارتها فماتت، وأنت ماذا اقتحمت يا بني؟

- قلت لي يوما أن شابا مجاهدا في ربيع عمره ترك وصية لأهله قبل استشهاده، خطوط حمراء على ورقة صغيرة بيضاء تقول:

لا تبكوا بل أقيموا حفلة عرس كبيرة.

ونفذ أهله الوصية مع كثير من المدعوين، ومع ذلك فقد أدمعت عينا أمه، أم العريس الشهيد، والأم تدمع عيناها في عرس ابنها وتزغرد حنجرتها عند قدوم العروس...

- فأي وصية تركت لي يا كمال لأتصرف، ماذا أقول لغد؟

من يقبلني في العيد في مسائي وصبحي، من ألبسه الجديد؟ من يبلسم جرحي؟ هل حقا غيابكما يطول في رحلة بعيدة، وبعد الأحضان تأتي الطلول وأبقى في الحياة شريدة؟

- سكينة شرفي وكمال ضميري، فكيف يستطيع المرء العيش بلا شرف ولا ضمير.

هي قدسي وهو عروبتي، لمن أعيش بعدها؟

- سكينة اقتحمها الأعداء، فاقتحمت بنفسها الزمن، في خرائط الأرض المتغيرة، كل المدن والقرى أعضاء من جسم حبيبتي... وأنت ماذا اقتحمت يا كمال؟

- تمسك الأم الثكلى شعر رأسها في جنون وهي تردّد السؤال ثم تجيب عنه:

- نعم لا يوجد غيري، أنا الضحية المقتحمة.

ثم تخرج من المقبرة القريبة من سكناها في حالة كئيبة، تخاطب نفسها مرة وابنها مرة أخرى وتذكر ابنتها من حين لآخر:

- كان لي آخر رصاصة في جعبة الوجود، آخر قنبلة تدر الشظايا في عيون الزمن الغادر، لكنها انفجرت في أعماقي، فمن يجيرني غيرك يا رب...

ثم تخاطب روح ابنها مباشرة قائلة له في كلمات متباعدة يتوسطها النشيج:

- كنت لي آخر فقرة تشد رأسي للنظر في السماء العالية لتقبل الكواكب جبيني العفيف فانسحبت، فمن يشد رأسي إلى السماء، ، ثم تتمتم كلاما غير مفهوم...

كانت جارتها نجمة تتبعها، تحاول تهدئتها وإعادة اللحاف إلى رأسها، أحست نجمة باضطراب كبير يسري بين ضلوعها وانفعال شديد يثير جوانحها كأنهما يخفيان دوافع كثيرة، لا يُستطاع حصرها وقد تجاوزت بعددها الحبائل التي كانت تحيط بعنق كمال كالأخطبوط..

الوجه يصفر تارة ويحمر أخرى، والشفتان ترتعشان كلما أرادت أن تقول شيئا قبل أن تنصرف تاركة أم كمال وحالتها الكئيبة في منتصف الطريق... حيث حاولت الأم وثورة انفعالها وهذيانها في درجة الذروة أن تسلك النهج الذي يوصلها إلى البيت، لكن النسيان كان قد غزا ذاكرتها فنسيت طريقها، ، وضاعت ذاكرتها كما صار كلامها يضيع وهي تجري في شوارع المدينة، تبحث عن بطلها الذي فتكت به الحرب الباردة، تتفحص وجوه المارة مستفسرة:

- تعال، أنت كمال أرني عنقك، ، لا، لا لست أنت، ثم تقهقه بصوت عال يتحول فجأة إلى نحيب وتسأل النساء العابرات أمامها:

- أليست سكينة معكن؟ ألا تعرفنها الجميلة السمراء، لقد خرجت مع أخيها كمال ليلعبا قرب الدار فلم يعودا منذ الصباح القديم... وتلتفت العابرات نحوها في شفقة، فتقول إحداهن:

- المرأة مجنونة، مسكينة.

بينما تخرج أخرى قطعا نقدية تقدمها للأم المجنونة، فتتلمس المسكينة النقود ثم تلقيهما أرضا صارخة:

- لا أبيع، لا أبيع ابناي.

وتعود إلى النقود تجمع بعضها في سرعة جنونية وعلى وجهها ابتسامة ساخرة، ثم تجري ملتحقة بالنسوة قائلة لهن:

- هاهي الدراهم، اشترين بها مرطبات ومثلجات لكمال وسكينة إنهما في طريقكن.

تجـري في الشـوارع تبحـث عـن كمـال وسـكينة سـائلة... متفرسـة في الوجـوه ويقودهـا في بعـض الأحيـان مـن يعرفهـا ليوصلها إلى بيتها، لكنها ما تلبث أن تحن إلى الشـارع حيث يتجمع حولها الأطفال مصفقين لها في حلقة دائرية، فترقص الأم المجنونة ولسانها يردّد مقاطع حزينة لأغنية ألّفها القدر ولحّنتها الأعصاب الممزقة:

يا مــن قطعتمـــا أوتــاري ** وأسكنتما الشقاء داري.

عودا إلى الحياة والـوجـود ** وبددا وحشتي وشــرودي.

عودا فألاقيكما بالأزهار ** عودا فقد طال انتظاري.

يهتــزّ جســمها متزلــزلا في رقصــات هيســترية، حركتهــا تشـنجات الأعصـاب ثـم تتمـدد أطرافهـا بعـد إرهاقهـا مفترشـة أبواب المطاعم، تنتظر يوما جديدا. وفي إحدى الأمسيات ظهرت رقصاتها على شاشة التلفزيون وحولها الأطفال يصفقون، قال الصحفي معلقا على المشهد وهو يقرأ الأخبار:

- هــذه لقطــات مــن ابتهــاج الشــعب وأفراحــه، بمناسـبة ذكرى عيد الاستقلال التي تصادف هذه الليلة...

❷

مع صحفي فضولي...!

رغم قساوة الطبيعة فهي أرحم بكثير من بعض البشر.
أخرجت الحروف متعثرة الصوت، متهدجة الكلمات ثم أودعت لسانها لصمت حزين... غرقت في ذكرياتها لا تريد الاستغاثة من أحد، استعادت أفراح الماضي البهيج في لباسها المزركش بمختلف الألوان، والعقدة الحمراء في نهاية ضفيرة شعرها

تتطاير راقصة على صدرها مرة وعلى ظهرها مرة أخرى، تلعب مع الندّات في زهو غرير كأنها ملاك لطيف يقبل شيئا من الشمس وشيئا من المطر، لا تبالي بالرعد والعواصف، ثم تذكرت مقعد الدراسة وتحليلها لقصيدة مع"لاجئة في العيد" الوجدانية للشاعرة فدوى طوقان... فاغرورقت عيناها الجميلتان بدموع الحاضر المرّ، المتدفق مع الأيام والشهور والسنوات..

سألها مرة ثانية بلسان فيه كثير من القسوة:

- أتبكين يا سكينة، عفوا يا سيدتي المديرة، هل تعلمين أن دموع النساء أوحت للعلماء باكتشاف المطر الاصطناعي؟

- لوّحت بمنديلها الأصفر وهي تجفّف العبارات المتناثرة على وجنتيها، ثم نظرت بعينين نديتين إلى سقف المعمل قائلة وهي غير مكترثة لسؤاله الاستفزازي:

- إن سؤالك أدمى أعماقي فكيف تستغرب نزيف الدمع وقد جرى..

- لكن ما علاقة سؤالي بأعماقك وبوجودك في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة؟

رمته بنظرة فاحصة ثم قالت له:

- ما شأنك بحياتي؟ أظن أن مهمتك لا تكلّفك هذه الأسئلة الفضولية؟

ارتبك عمر قليلا، ثم موه ارتباكه بابتسامة مصطنعة وهو يجيبها:

- مهنة الصحافة علمتني البحث عن كل شيء ومعذرة إذا كنت قد أخطأت الفهم.

- الصحافة أبواق تعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء... هي هكذا، أتريد أن تكون كذلك؟

تأملها مليا وهي تتحدث إلى إحدى العاملات، كانت في منتصف العقد الثالث من عمرها أو أكثر من ذلك بقليل، فهي لا تتجاوز السابعة والعشرين ربيعا من عمرها على أكثر تقدير نظري.

ساحلية البشرة واللهجة... صحراوية المزاج والحديث، تملك من تناسق القوام وحلو الكلام ما يغري بسقوط إمبراطورية من جنس الرجال... تساءل عمر في حيرة:

- ما قصة قدومها إلى هذا المكان، كيف التحقت بهذا المنصب وقد خرجت من مدينتها مجردة من كل سلاح، هاربة من كلام الناس لا تعرف اتجاها لها، ثم من أين تستمد تجربتها في إدارة معمل التمور ولم تفلح في تسيير بيتها يوما.

اقترب منها قليلا وفي نيته فكرة جديدة لكسب ثقتها.

- لنتكلم كإخوة ولندع مهنتي جانبا.

قالت بعد زفرة طويلة:

- جف دم الأخوة في عروق البشر...؟!

- لقد ذكّرتني بقول الشاعر: ما أكثر الإخوان حين تعدهم، وفي النائبات قليل.

- وتقرئين الشعر أيضا... هل تجدين فيه ما وجدت في الصحراء؟

وتجيبه قائلة في صوت جهوري:

- الصحراء والشعر عالم واحد بلا حدود، تسبح فيهما النفس البشرية دون عناء.

ثم تستدرك بعد قليل من الصمت:

- والصحراء التي تبدو لك قاحلة. إني أراها روضا من الرياض الغناء، إنها محضنتي يوم أن تنكرت فيه المعارف.

- لم يستوعب فكري ما تقصدين قوله!

- أو أنك تتجاهل الفكرة لتعرف العلّة..!!

قال عمر في نفسه:

- يا لذكاء هذه المرأة كلما أن...

قاطعت أفكاره وقد تفطنت إلى ما يجول فيها:

- لكنّنا ضعيفات، ننهزم بسرعة، كما تهربون أنتم بسرعة.

مسك عمر الدفتر بيده يريد التسجيل لكنها استوقفته قائلة:

- لا داعي للقلم، إن الحبر أثبت عجزه في تسجيل آلام الإنسانية.

- لكن هذه مهنتي أكتب ما أسمع أو أشاهد.

- إذن. هذا المعمل أمامك فاكتب عنه ما شئت، الإنتاج، العاملات، الآلات، الأرباح.

تناول عمر حبّة من التمر المكدّس وبدأ يفتقها لينتزع نواتها، كما كان قبل ذلك يحاول فتح صندوق الأسرار التي تحفظه سكينة في صدرها، قالت له إحدى العاملات في لباقة:

- إنه نوع ممتاز، طلبات كثيرة من داخل الوطن وخارجه تصلنا قصد استيراده.

- دقلة نور..؟!

- أجل.

دخل طفل في سن السادسة إلى المعمل يحمل محفظة صغيرة، يسير في حركات رياضية متراقصة وهو ينشد.

- (في ظل السيف تربينا... وبنينا العز لأمتنا)

قالت إحدى العاملات لسكينة:

- ها قد وصل صلاح ابنك يغني كعادته.

فوجئ عمر بما رأى وقال في نفسه مستغربا:

- أنّى يكون لسكينة ابن ولم تمكث في بيت عدنان النفطاوي سوى ساعات، وأنها خرجت من المدينة يوم إصدار حكم المحكمة لا تحمل في بطنها شيئا. هل تزوجت من جديد أم أنها...؟!

- السلام عليكم.

رد الحاضرون التحية معجبين بخفة صلاح الذي كان يتنقل من عامل لآخر مصافحا، ثم قبل أمه التي احتضنته بعد أن سلم على عمر، ركّز عليه بصره ثم سأله بلسان فصيح:

- هل أنت معلم؟

لأول مرة يشعر عمر بنوع من الارتباك، سؤال صلاح محرج والجواب عنه بصدق مستحيل في هذا الظرف، والصمت في المصاب أحسن بيانا.

قالت سكينة تجيب ابنها:

- ليس كل من يحمل قلما معلما... إنه صحفي وتدخل عمر:

- هل تعرف معنى صحفي أيها الطفل الذكي؟ هزّ صلاح رأسه مجيبا:

- نعم، إنه يسأل الناس ولا يجيبهم!

ابتسم الجميع ثم قال عمر:

- ذلك هو الفرق بين المعلم والصحفي، الأول يسأل ويجيب والثاني يسأل ولا يجيب.

- أتمنى أن أصبح في المستقبل صحافيا(ونظر صوب أمه) لتجيبني أمي عن أسئلة كثيرة.

نظر الجميع نحو سكينة التي امتقع وجهها خجلا من كلمات ابنها، فقادته نحو المكتب وهي تقول لعمر:

- تفضل.

جلس على إحدى الأرائك المواجهة لمكتبها وقال يعتذر في حرج:

- أملي ألا تكون أسئلتي زادت في وزن دمي، وخفة لساني أثقلت ظلي.

أجابته سكينة موضحة:

- الثقيل ليس لسانك أو ظلك، بل قلمك وأنك تعلم أنه سلاح ذو حدين.

وضع القلم في جيبه قائلا في كلام مقصود:

- السجن أرحم لك من النظرات.. يا قلمي العزيز.

قالت له سكينة في ارتياح:

- هكذا إذن... أنت تتعمد إثارة مشاعري.

- عفوا يا سيدتي... إنه سر المهنة، ثم هل تعتقدين أن العاملات مستعدات للتخلي عن فكرة الإضراب...

- لا أظن ذلك، إذا ما استمر الرجال أصحاب النخيل في عنادهم.

- لكن للرجال أعذار، قد تكون موضوعية.

مسكت سكينة ابنها صلاح على جانبها وقطبت حاجبيها مستدركة:

- من أين علمت بموضوع الإضراب وهو ما زال في المهد فكرة؟

لم يجد عمر مبررا للتستر وراء مهنة الصحافة فقرر أن يقدّم لها نفسه ومهنته الحقيقية وقبل ذلك أراد أن يبعد صلاح من المكان:

- خذ هذه الدنانير واحضر بها علبة "شكولاته".

نظر صلاح صوب أمه التي لم تشجّعه بنظراتها فأبى.

قالت سكينة:

- صلاح هو الظل الذي يحرسني ويحلل خلوتي بأي شخص أصادفه أثناء عملي، وأني في انتظار الجواب عن سؤالي...؟

قال عمر في هدوء يخرج بطاقة من جيبه:

- هناك أمور ليست في مستوى الصغار فيجب إبعادهم عنها، تفضلي:

مسكت سكينة البطاقة حائرة لما سمعته، نظرت نحوه مندهشة:

- أنت إذن... وقالت في نفسها (محقّق من رجال الأمن السريين وليس صحافيا).

هز رأسه في إيجاب.

أعادت له بطاقته، ثم قامت تفتح النافذة المطلة على المعمل عن آخرها، وأمرت ابنها صلاح بمراجعة دروسه خارج المكتب، فانصرف ملبيا طلبها في الحين.

قال لها عمر:

- عفوا، لما سبق مني من تنكر، ظروف العمل السري تطلبت ذلك.

- نعم، أيها الشرطي المحقّق ماذا تريد؟

- اطمئني، بعض المعلومات أريد إتمام ملفي بها فقط. استغربت كلامه المريب، وقالت له ويدها تضع نظارتيها جانبا:

- أي ملف تريد أن تستجوبني لأجله.

قال لها مهدئا:

- قلت لك اطمئني، لا داعي للقلق، قبل أن أفتح الملف أريد أن أعرف بعض الأشياء عن حياتك بعد خروجك من المدينة التي كنت تسكنين فيها مع عائلتك.

اهتزت سكينة شوقا ممزوجا بدهشة المفاجأة، ارتبكت قليلا ثم امتد تفكيرها يحدث نفسها:

- ليتني أرمي بنفسي بذرة في أحضان مدينة الصبا، رغم كل شيء، رغم الظن والجور، فإن دمعي وجراحي مسامحة، ليتني أستطيع أن ألثم قدمي أمي الحنون وأمسك ذراع شقيقي كمال، إني في شوق إلى ذكريات ربيعي الضاحك، اليوم أستطيع أن ابتسم في وجه الأم الغاضب والأخ الثائر، ونقلع من مطار الصدق لنحلق في عالم الحقيقة الإنسانية، نستنشق عبير الإيمان بالله العزيز الحكيم الذي احتواني بعنايته الحكيمة...

انتبهت سكينة إلى رجل الأمن وتذكرت سؤاله وتأكدت بأنه يعلم عن ماضيها شيئا لا تستطيع تحديده، عاودها الارتباك واعتلت وجهها نفحة من فيض الخجل، لكنها قاومت اضطراب شفتيها وأجابت المحقّق قائلة في نبرات حزينة هادئة بعد أن أرسلت زفرة طويلة:

- خرجت من مدينة العذاب بعد فشلي في قراني الأول من شخص يسمى عدنان النفطاوي، وليكون ملفك ثريا بالمعلومات فإني أعود إلى الوراء قليلا لنبدأ الرحلة من انطلاقها، ، يضيع

الإنسان عندما لايعرف الخطأ من الصواب، في أيامي الدراسية شربت كثيرا من مرارة التناقض الذي يتنزى من جسم مجتمعنا المريض، الشباب يكتظون في الحافلة التي تنقلني من البيت إلى المدرسة يطلبون أشياء كثيرة مني ماعدا يدي، مدرس التربية يحثنا على لبس الحجاب، بينما مدرس الرياضة يعارض ذلك.

أبي يشجعني على المزيد من التعلم وأمي تخالفه رأيه، ومرت الأيام تحمل في جوفها أحداثا كثيرة، داهمت شمل الأسرة الصغيرة، فمات أبي وهو راكب جواده في الضيعة التي كان يسكنها جدي، وانقطعت عن الدراسة فتفرقت أحلامي بين الحنين إلى منهل العلم والاستعداد لدخول القفص الذهبي، أوالسجن اللذيذ في بيت الزوجية كما كنت أتصوّره..

قاطعها المحقّق:

- عفوا، ، هل لي أن أعرف الأشخاص الذين جمعتكم بهم الأقدار يومئذ؟

- نعم، أسرتي وجارتنا نجمة وعدنان النفطاوي وصديقه هفمان...

فتح المحقّق دفتره وأخرج قلمه بصورة عفوية جادة:

- ما نوع الصداقة التي تربط عدنان بهفمان؟

أرسلت سكينة تنهيدة قصيرة وقالت له في نفسها:

- (ذكرتني بالطعنة وقد كنت ناسية)

ثم أجابته:

- أظن أنهما أبناء بيئة واحدة، وقد سافرا معا إلى الخارج مرات عديدة.

- هل كان هفمان يتردّد كثيرا على بيتكم ؟

- نعم، المسافة لا تبعد كثيرا بين مسكنه والمدينة.

سألها المحقّق دون مقدمة وفي نبرة جادة وصوت لين:

- هل كانت لك مع هفمان واقعة تتذكرينها ؟

- صمتت سكينة ولم تجب، فحوّل المحقّق صيغة السؤال:

- أقصد هل توجد لك ذكريات معه ؟

أجهشت سكينة بالبكاء فانتبه ابنها صلاح الذي كان خلف النافذة يتأمل نشاط العاملات في وضع أكوام التمر داخل الصناديق الخشبية، وقف أمام النافذة يستشف الخبر، كانت

عيناه تومضان بالدمع وهو ينظر نحو عمر شزرا... كأنه يحمله مسؤولية دموع أمه سكينة، التي أشارت له بالابتعاد عن النافذة وواصلت حديثها في صوت مبحوح وفي عناء شديد.

- صِف ذلك بما شئت، كان ذلك أعظم ذنب أرجو الله أن يغفره، لقد غرّ بي هفمان وأنا في غفلة عن نفسي، وقد عرفت خطيئتي فتبت وعرفت من سعى على إيقاعي فيها سعيا...

- من ؟

- جارتنا نجمة، آه من مكرها.

- كيف ؟

- هي التي كانت تناديني إلى بيتها... تحدثني عن أمور خبيثة في الجنس لم أكن أفهمها، وتطلب من أمي السماح لي بمرافقتها إلى الشاطئ، حيث كنا نجد هفمان هناك.

- وزوجها ألم يمنعها عن ذلك؟

- كان في الخارج عاملا، يأتي إليها مرة في السنة.

قال لها عمر:

- لقد مرّت عدة أعوام ولم يأت كعادته، هل هو في لندن حقا أم أنه في هوليود؟

وقفت سكينة تنظر نحوه في استغراب:

- إذن أنت تعرفها، وتعرف أسرتي؟

- نعم.

سألته في لهفة:

- ما هي أخبار أمي وأخي، كيف حالهما، هل قبضا آخر حوالة بعثتها لهما؟؟

قال لها عمر وهو يتأمل انفعالها:

- إهدئي، سأخبرك بكل شيء بعد قليل.

- إني شممت فيك رائحة أمي منذ أن رأيتك للوهلة الأولى، فلا تلمني إن أمعنت فيك النظر.

- لكن لماذا بقيت سجينة الصحراء، ولم تفكري يوما في زيارة أمك؟

أجابت سكينة في حسرة:

- لم أجد قدرة على العودة إلى مدينة العذاب، لقد نفدت طاقتي عندما كنت أتصدّى للأفواه التي كانت تمضغ تاريخي، مشيت على الشوك حافية وحاولت أن أدفع الشر بعود أو عمود لكنه هزمني، وبرغم الحنين لعائلتي... فإن الربع الخالي أرحم من أعمامي وأخوالي...

سألها المحقّق:

- ألم تحاولي الاتصال بهم قبل اليوم ؟

- بلى، بعثت رسائل فلم أتلقّ ردّا ، كنت أتمنى أن تزورني أمي هنا ، وكم انتظرت يوم أن أقمنا احتفال العقيقة بعد مولد صلاح، لكنهما لم يحضرا كأن الدعوة لم تصلهما ، رغم أن جارتهما نجمة تعمل في مصلحة البريد.

أشعل المحقّق سيجارة ، فبدأ عليها استياء خفيف وهي تنظر إلى خيوط الدخان تخرج من النافذة التي كان يقف خلفها ابنها صلاح، انتبه المحقّق إلى ملامحها فأطفأ سيجارته معتذرا ، ثم سألها.

- كيف وصلت إلى هذا المكان؟ وهل كان لك زوج ثان بعد عدنان؟

نظرت سكينة في الساعة فوجدت متسعا من الوقت، قبل انتهاء الفترة الصباحية، وعادت بها الذكريات إلى يوم خرجت فيه من المحكمة حزينة غاضبة بعد سماعها قرار الحكم242 وركبت قطارًا لا تعرف اتجاهه، قالت للمحقّق الشاب:

- وجدت نفسي بعد مغادرة المدينة أنزل من القطار ـ بعد رحلة طويلة ـ في مدينة كبيرة، كثيرة المارة والشوارع، عالية البناء، واسعة الساحات، عرفت بعد ذلك أنها العاصمة، رأيت أشياء كثيرة وأقبلت على شتى المناظر أتأملها غير أن رجلاي كانتا متعبتين لا ترغبان في السير فوقفت أتأمل الجهة البحرية باحثة عن النسيان فلم أفلح رغم أن النسيم العليل كان يغري بأشياء كثيرة...

❸

ذكريات...... وشجون

حاولت العودة إلى دارنا بمدينة العذاب فتذكرت أشياء كثيرة من ألوان المعاناة التي واجهتها هناك، وبعد تفكير طويل عدلت عن فكرة الرجوع، وقررت أن أسافر إلى إحدى الصديقات ـ تسكن في هذه الناحية من الجنوب ـ كانت تجمعنا المراسلة منذ تعارفنا عن طريق مجلة الأمة ونحن في أيام الدراسة.

رحبّت بي واحتضنتني فسقينا شجيرة صداقتنا بوابل من الحب والإخلاص فترعرعت، ذكرت لها ما وقع لي فتمسكت بي وشجعتني على المكوث معها، كانت وأمها تعيشان وحيدتين بعد وفاة أبيها.

ساعدتني خديجة. وهذا اسمها، في الحصول على عمل بسيط بهذا المعمل وأصبحنا نعم الأختان بهذا المعمل وفي المساء نقوم بمساعدة أمها(خالتي مريم) في شؤون البيت ثم نركن إلى كتاب الله نتأمل آياته...

تزوجت خديجة وبقيت أنا مع أمها التي كانت تذكرني بأمي في حركاتها وسكونها... آه سامحيني يا أمي، ،

خصصت حياتي لعملي بذلت ما في وسعي لأتقنه كان يقيني أن جهادي في العمل يشفع لي عند ربي ويمحو الإثم الذي دنست به عمري. وارتقيت في سلم العمل شيئا فشيئا، كانت درجة السلم الذي ارتقيته مزخرفة بنقوش من ذهب، أتدري ما هو "الذهب" يا أخي؟

ردّ المحقّق:

- رغم أن ذلك من اختصاص النساء لكني أعرف من ألوانه الكثير حتى الأسود.

قالت سكينة:

- الذهب الأسود إرث الأجداد يسبح في أحواضه أعمامي وأبناؤهم.

صمتت قليلا عائدة من رحلتها إلى مرفأ عدنان النفطاوي.

لكنها سرعان ما استدركت حالها فأردفت في اعتزاز:

- إنه العلم، الذهب الذي لا يصدأ ولا يزول، لقد شفعت لي دراستي الماضية في ضمان مستقبلي،

استأنفت حديثها بصوت أكثر هدوء:

تقدّم لخطبتي بعض ممن شغلتهم سياسة الحياة عن الاهتمام بالزواج وانتبهوا إلى واقعهم بعد أن داهمتهم مرحلة الكهولة، فرفضتهم جميعا.

رنّ جرس الهاتف، فحملت السماعة بيدها اليمنى قائلة:

- نعم.
- .....
- السلام ورحمة الله.
- ......
- نعم لقد عاد وهو يراجع دروسه خارج المكتب، هاهو قد أقبل، دخل صلاح يحمل كراسه وعيناه تترصد ملامح أمه، اقترب منها قائلا لها في همس.
- إذا كان أبي على خط الهاتف، فإني أريد مخاطبته.
- ....

قالت سكينة لابنها وهي تقدم له السماعة:

- هذا أبوك على الخط، أقرأه السلام.

ابتسم في براءة ومسك السماعة:

- السلام عليكم يا أبتي.
- ....

- نعم، حفظت منها بعض الأبيات كما وعدتك، هل تريد سماع ما حفظت؟؟

- ....

في صوت ساحر عذب بدأ الطفل صلاح يتغنى بمقاطع شعرية:

في ظل السيف تربينا ❖ وبنينا العزة لأمتنا
علم الإسلام، الله، الله ❖ علم الإسلام رايتنا
غرباء ونحن سر الوجود ❖ غرباء وبالحق نعود

نظر المحقّق إلى ساعته ثم إلى بعض الأوراق في ملفّه، وقال لها بعد أن وضع صلاح السماعة في مكانها:

- طفل رائع!!

صمت المحقّق قليلا ثم أردف قائلا في ابتسامة قصيرة:

- ... وأظن أن أباه كذلك، هل أصبت ؟

ردت سكينة في هدوء وعيناها تنظران إلى حركة العمل:

- هذا الشبل من ذاك الأسد.

سألها المحقّق:

- كيف تعرفت على ذاك الأسد؟

أجابت:

- اطمئن، إنـي لم أتعـرف عليـه في الغابـة أو في حديقـة الحيوانـات الشـمالية الـتي صـارت مركـزا رسميـا للفجـور... وأردفت في جرأة...:

- ثم هل هذا يفيدك في التحقيق ؟

- نعم.

صمتت قليلا ثـم قالـت في هـدوء غريـب وهـي تسـترجع في ذاكرتها صورا لأيام نقشت على جبينها أشياء كثيرة:

- عنـدما تزوجـت صـديقتي خديجـة إلى مدينـة غـير هـذه المدينة أوصتني وهي تطبع على خدي قبلة الوداع:

- أختي سـكينة، هـذه أمـي أمانـة الله عنـدك، احفظيهـا إلى أن يفرج الله على خالي عمران، الفارس المقيّد...

قبل سنتين كانـت تعيش خديجـة مـع أمهـا وخالهـا في بيـت واحـد، ، وفي موقـف رجـولي قـال خالهـا كلمـة حـق فأدخـل

السجن... مع الإخوان دعاة الإصلاح، ، ، عشت مع أم خديجة شهورا أعينها على نوائب الدهر وفاء بالعهد لخديجة واعترافا بجميلها، وكنت أرافقها إلى باب السجن وقت زيارتها لخالها عمران.

لم أكن أعلم أن أم خديجة كانت تحدّث أخاها عمران عني وعن أمر آخر خاص بنا. وخرج عمران بعد أن مرت عليه بضع سنين وراء القضبان، رأيته والزمن قد امتص من رحيق عمره خمسة وثلاثين ربيعا، لكن روحه كانت في عنفوان شبابها تنبض بالنشاط والعزة والأمل.

طلب عمران يدي من إمام البلدة وبعد أن رضيت بدينه وخلقه قبلته زوجا لي:

سألها المحقّق في فضول:

- ألم يعرف عمران قبل زواجكما بعض الأشياء عن ماضيك؟

أجابت بثقة واعتزاز:

- بلى، لقد آمنته على سري ثم ذكرت له كل شيء من الألف إلى الياء.

قال لها المحقّق في تعجب:

- ومع ذلك قد وافق...!

قالت سكينة في ابتسامة ساخرة ونبرة جادة حزينة:

- إن الله يقبل التوبة فكيف ترفضها أنت...

ثم أردفت:

- هل انتهت أسئلتك، ألا يمكن أن أعرف أنا جوابا منك؟

- ما هو؟

- ما هي أخبار أمي وأخي كمال؟

صمت المحقّق يفكر في طريقة إخبارها، خشي أن تصاب بانهيار عصبي فقال لها.

- سيخبرك زوجك عمران عنهما في المنزل، ، هل أستطيع معرفة مكان وجوده الآن ؟

قالت في حيرة كبيرة والأفكار تتزاحم في ذهنها لتبني قصرا من الشك:

- عمران يدرس في معهد الحياة، قسم البيولوجيا.

جمع المحقّق عمر أوراقه وخرج من معمل تعليب التمر قاصدا معهد الحياة للقاء زوجها عمران.

ꕥꕥꕥꕥ ⇧⇧⇧ ꕥꕥꕥꕥ

- أعرف أن إيمانك قوي فما بال دموع الضعف تنهمر؟

- لا طاقة لي على وقفها وأنا أرى من بعيد المدينة التي خرجت منها حزينة، وأدخلها اليوم في حالة أشد ابتلاء.

- لكنك خرجت وحدك وأنت اليوم تعودين معي ومع صلاح ابننا، لقد عدت ظافرة بعد حرب ضروس مع الزمن.

كان الزوج عمران يهدأ من روع زوجته وقد هالتها المفاجأة التي حملها المحقّق عمر إلى زوجها، ورغم إيمانها العميق بالقضاء والقدر فإنها كانت تستسلم من حين لآخر لحزن شديد كلما تذكرت مأساة أخيها وحالة أمها العجوز.

***

لقد هيأ عمران وزوجته وابنهما صلاح أنفسهم للسفر في سرعة ارتجالية وغادروا بيتهم بالصحراء في اتجاه الشمال، أقلعت الحافلة بركابها في صباح يوم متقلب الطقس، هواء الجنوب يعانق نسيم التلال الخضراء، الأشجار الكاسية تظلّ

الأرض العارية، لهيب الشمس يضعف شيئا فشيئا وهو يودع صفحات المياه المتحركة في سكون من المرتفعات السهبية.

سألته زوجته:

- من المتسبب في هذه المصائب التي فتكت بنا؟

أجابها وبصره يمسح السفوح الخضراء الجميلة؟

- كلما ابتعد المرء عن تعاليم دينه اقتربت منه المشاكل.

قالت له:

- أخطاؤنا أشواك تنبت فينا يقوم بسقيها الآخرون.

سألها صلاح:

- ومن يغرس هذه الأخطاء يا أمي؟

أجابه أبوه:

- الشيطان يا بني، إنه عدو الإنسان.

صمت الثلاثة يفكرون، يتأملون مناظر الرعاة وهم يحرسون قطعان الأغنام على مقربة من الطريق، كان صلاح يلوح بيده الصغيرة من خلف زجاج نوافذ الحافلة محييا الفلاحين في بساتينهم اليانعة، بينما كان عمران غارقا في بحر

الذكريات التي عاشها بين إخوانه طيلة أيام الحبس، ، أما سكينة فكانت تفكر في الحوادث التي وقعت أثناء غيابها متسائلة:

- هل أنا السبب في كل شيء؟ كمال ينتحر لأنه عرف سر هروبي؟! مستحيل، وأمي، أمي العزيزة التي هجرتها، ما ذنبها؟

- هل النقود التي كنت أرسلها لها كل شهر تغنيها عن رؤيتي، لا..لا.. مستحيل. يا ليتني بقيت معها، يا ليتني أحضرتها عندي هي وأخي كمال قبل حدوث ما وقع.

سألها زوجها هامسا:

- هل تظنين أن المحكمة تعاقب عدنان النفطاوي بالإعدام؟

أجابته وهي تنظر إلى موقع قدميها:

- ليست لي خبرة في قضايا الإجرام، ومع ذلك فإني لا أتوقع ما قلت، لأن معارفه كثيرة، وأمواله قارونية، لكن... (ثم استدركت قائلة في نفسها):

- القاتل يقتل ولو بعد حين، هفمان قتلني يوما، قتل في نفسي العزة والأمل، أعدم فيها الثقة، لكن الله يمهل ولا يهمل، ، فقد جاء اليوم الذي لقي مصرعه على يد صديقه، سامحهما الله...

تلك هي الأخبار التي حملها المحقّق عمر إلى زوجها عمران بمعهد الحياة، ارتعدت لها فرائص سكينة وهي تسمع أن كمال انتحر، وقبل ذلك بعث رسالة إلى النفطاوي يشكو فيها ألمه ويخبره بالسر الخطير...

حدثت نفسها في مرارة:

- يا إلهي، إن أخي كان يعرف كل شيء.

ثم قالت لزوجها:

- هل تعلم بأن كمال رحمه الله كان يحب سماع الأخبار؟

- أي أخبار؟ ولماذا؟

- يريد معرفة أحوال أمته النائمة بين المحيط الهادي و...

أكمل ابنها صلاح تلقائيا وبصره يعد الأشجار:

- والمحيط الأطلسي.

قال لها عمران:

- "الجاهل من جهل أحوال عصره".

سأله ابنه:

- ومن هو الأمي يا أبي؟

- "الأمي من لم يعرف ماجدّ في اختصاصه على الأقل".

كانت شوارع المدينة الواسعة تشد الانتباه بالشعارات الكثيرة المعلقة على الأعمدة.

كأنها جثث مكفنة تحملها الأكتاف، والخط الأحمر المرسوم بها في لون دم القتلى، آه.... ساسة اليوم كالشعراء يقولون مالا يفعلون، نعم ما أقرب المسافة بين الشعر والشعارات... وما أكثر المؤتمرات والمؤامرات...

بعد صمت واصل عمران تعليقه على المشهد:

- انظري بعيدا، كأن المشاة بهذه الشوارع يسيرون في موكب جنائزي كبير.

أردف صلاح بعد أن التفت صوب المشهد:

- لدفن الشقاء؟!

قالت أمه:

- الشقاء لا يدفن في المقاهي والملاهي والتسكع في الشوارع وتعليق الشعارات الجوفاء... وصلت الحافلة إلى المحطة الكبيرة التي تتوسط المدينة، فنزل عمران وأسرته وبعض المسافرين.

مدينة العذاب تستقبل العائلة الصغيرة القادمة من أحضان الصحراء... كانت سكينة في كل خطوة، في كل نظرة، تتذكر أيام طفولتها الزاهية بين ندّاتها في طريقهن إلى المدرسة:

- هذه المكتبة التي كنت أقتني منها الكتب، هذه الثانوية التي تابعت فيها دراستي، لم يتغير من وجهها الوقور شيئا، وهذا شارع السوق الذي كنا نشتري منه الفواكه والخضر، ما أوسعه اليوم!

وما أكثر المارّة والسيارات، حذار يا صلاح!

سألها زوجها:

- المنزل قريب ما دام السوق هنا؟

- نعم، إنه في نهاية الشارع المقابل.

وضعت "نجمة" سماعة الهاتف جانبا وبدأت كعادتها ترسم بهوامش الطوابع البريدية خريطة كبيرة، ثم قالت وهي تتأمل الخريطة أمامها:

- إن قابض هذا المركز سيجن عند عودته من العطلة.

نظر سعيد الجالس أمام الشباك نحوها قائلا في فتور:

- لماذا؟

- كأنك تتجاهل وضع العمل، ألا ترى النائب الذي يسيّر هذا المركز البريدي وهو لا يفقه من عمله شيئا؟

قال سعيد:

- على كل حال، فإن الحسابات يراقبها بدقّة.

- لولا مساعدتك له لضاع، كم أتمنى أن يقدم استقالته قبل نهاية الشهر المحدد له.

- لماذا يا نجمة؟

- صمته لا يعجبني ويبدو أنه غير متفتح.

قال لها سعيد:

- الصمت حكمة كما يقولون، ويكفيه أنه ملتزم بعمله، عكس صاحبنا الذي جعل الهاتف رسولا لمواعيده الخاصة... وسيارة المركز محلا لنقل الأجساد الرخيصة...

- ماذا تقصد يا سعيد؟ أي جسد تعني؟

- الأجساد المتعفنة في مستنقع الخلاعة والمجون...

دخل القابض الجديد المعيّن للنيابة خلال عطلة الصيف، فصمت سعيد ونجمة وبدا عليهما نوع من الاهتمام بعملهما، حيّاهما وهو يتأمّل الخريطة المرسومة أمام نجمة، فردا عليه التحية في هدوء غريب، ارتبكت نجمة وهي ترى القابض يتأمّل الخريطة فوضعت عليها مجموعة من الأوراق في حركة تبدو غير مقصودة.

عاد إلى مكتبه بعد أن طلب من سعيد إتباعه:

جلس سعيد في انضباط تام على الكرسي المواجه لمكتب القابض الذي كان منشغلا في ترتيب بعض الملفات الحسابية، قال لسعيد وهو يقترب من كرسي المكتب الجلدي ليجلس في استرخاء تام:

- لقد سمعت حوارك مع نجمة منذ قليل.

ارتبك سعيد قليلا ثم قال في شجاعة أدبية:

- ما كان لك أن تسترق السمع خلف الباب، فالجوسسة حرام في كلّ التعاليم.

لم يهتم القابض بكلام سعيد وسأله مستفسرا:

- هل توجد بين نجمة والقابض الرئيسي علاقة زائدة عن علاقة العمل؟... أجب صراحة، تنل مكافأة!

- قام سعيد متأخرا نحو الخلف وهو يقول:

- لست من نوع الموظفين المتملقين أو الذين ينقلون أخبار زملائهم لرؤسائهم، ثم إن حذائي لم أمسحه، فكيف تريد أن تعلمني مسح حذائك.

خرج سعيد والغضب يرتسم على محياه بينما مكث القابض الجديد في مكتبه يتأمل الحوالات البريدية القديمة ثم سرعان ما حمل الهاتف يطلب سعيدا.

حضر في الحين وعلامة التساؤل تسبقه:

- نعم.

- اجلس يا سعيد، تفضل.

- عفوا، لا أدخن.

- حسنا، إنك تحافظ على رئتيك كما تحافظ على سمعتك.

- هذا من فضل ربي.

- تفضل يا سعيد، هذه بطاقتي المهنية.

قبض سعيد البطاقة وقرأ بدهشة المعلومات المسجلة عليها ثم قال:

- أنت شرطي سري، تصرفاتك أوحت لي بذلك فكذبت نفسي، ماذا تريد يا...؟

- عمر، اسمي عمر وأريد أن لا يعرف أحد هذا السر.

- فقط؟

- لا يا سعيد هناك أسئلة ستجيبني عنها.

- تفضل.

إن نجمة تثير شكوكنا، ، هل لها علاقة خاصة مع أحد العاملين في البريد؟

- من تقصد؟

- أنت يا سعيد أو القابض أو أحد زملائك؟

تغيرت ملامح سعيد وقال في صوت فاتر:

- لا أعرف عن هذا شيئا، ولا أريد قذف أحد.

سأل الشرطي السري قائلا:

- من كان يوزع الحوالات على أصحابها؟

- أنا يا سيدي الشرطي.

قدم عمر لسعيد بعض الحوالات قائلا في هدوء:

- هذه الحوالات أقبلت منذ سنة باسم (فلانة) أم كمال وهي كما تعلم في حالة مرض عقلي، فكيف يمكن لها أن تقبض مبالغ هذه الحوالات؟

قال سعيد مستدركا:

- آه، صحيح، هيا بنا نسأل نجمة جارتها التي كانت تطلب القيام بمهمة توصيل مبالغ الحوالات إلى صاحبتها... سأله الشرطي عمر:

- هل تشك في أمانة نجمة؟

إن بعض الظن إثم يا أخي، وإذا كان ما يدور في مخيلتك الآن حقيقة فإن...

قاطعه الشرطي عمر قائلا في حيرة:

- لا تكمل لأنك لا تستطيع إيجاد الكلمة المناسبة.

4

أمّة تائهة

الباب مفتوح عن آخره، أوراق شجرة الجوز تتطاير في فناء المنزل، الجدران متصدعة، تبتسم شقوقها من حرارة اللقاء الأروع، بعد فراق طويل، وضعت سكينة رجلها على عتبة باب المنزل الذي ترعرعت في أحضانه سنين وسنين... كان منظر الفناء مؤلما، انفطر له فؤادها وهي تقارن بين الماضي والحاضر، دخلت الفناء فأتبعها زوجها وابنها صلاح، وقفوا

قليلا تحت شجرة الجوز التي كانت سكينة تصنع من جذورها السواك، تأملت سكينة شجرة الأحزان كأنها تبحث عن شيء ثمين معلق على أحد أغصانها، تقدموا نحو باب البيت ودخلوه متمهلين كأنهم يفتحون الملف السياسي لأمة تقاسمها السلاطين وألبسوها أثوابا من نسج المحن...

أثاث البيت مضطرب، الملابس ملقاة هنا وهناك وبعض الأواني في الأرض تتجمع عليها مجموعات من الذباب والفئران التي تسللت إلى جحورها عندما شعرت بقدوم الأشخاص، القاذورات تبعث رائحة كريهة تسد الأنوف، تراجع عنها عمران إلى الوراء وهو يمسك ابنه صلاح:

- تعال معي إلى الخارج يبدو أن التتار عاد إلى هذا الوطن...!

كانت سكينة واقفة في وجوم تتأمل الغرفة في صمت مدهش فوقع بصرها على إحدى زوايا البيت فرأت شكل شخص في فراشه، تقدمت قليلا متحدية الظلام والروائح الكريهة، نادت بصوت مريع:

- أمي، حبيبتي، ، من أهملك؟ هل نحن أم الزمن؟!

احتضنت سكينة جسم أمها المريض الذي لم يبق فيه الداء سوى شبح من الهيكل العظمي عليه جلد مجعد، قبلت سكينة وجها بارز التضاريس العظمية التي تحمل طبقة من الوسخ، كأن الماء لم يمسه منذ ألف سنة أو من العهد العباسي. ثم مسكت الشعر المندثر على الوجه والكتفين، كالشلال في تدفقه وبياضه، كأنه مستعمرة صغيرة للحشرات الصغيرة، التي كانت تتجاوز حدوده، لتصول وتجول الثوب البالي الممزق، الذي يحتوي جسم الأم المغمى عليها من شدة المرض والجوع والعطش.

دخل عمران البيت بسرعة بعد سماعه نداء سكينة، راعه المنظر... تمسك نفسه وأحضر فيها كل ما يملك من صبر وإيمان... حمل العجوز أم سكينة بين يديه كما تحمل الأم صغيرها وأخرجها إلى فناء الدار، مردّدا:

- أبو لهب... أم التتار؟ من فعل هذا؟ يا للعار...!

بدا منظرها في الضوء رهيبا، لا مثيل له، لم تر الشمس قبله شبيها، ، ، صورة فريدة للإنسانية المعذبة، لقد بدأت

الصفات البشرية تنأى عن ملامح الأم المعذبة وهي في حالتها البائسة، قال عمران:

- لقد حقّ الجهاد في هؤلاء القوم الذين لا يكفلون المساكين. قالت سكينة تلوم نفسها، وهي تكاد تسقط من الإحساس بالدوران والصداع المفاجئ.

- أنا السبب، نفسي هي التي تستحق الجهاد.

وانزوت إلى الحائط تسند عليه ظهرها خشية السقوط بعدما أحست بإغماء يصارع كيانها الذي استسلم بعد برهة قصيرة لغزوه. هوت سكينة على الأرض والعرق يتصبّب من جبينها ويتساقط في قطرات على خمارها الرمادي.

ووقف صلاح مرتعشا لا يدري ما وقع لأمه، ولا يصدق أن العجوز المتمددة أمامه في ثيابها الرثة كثياب المتسولين الذين ينامون على الأرصفة، هي جدته التي حدّثته أمه عنها وجاؤوا اليوم لزيارتها.

سارع عمران إلى سكينة المغمى عليها واضعا يده بيدها اليمنى ولسانه يقرأ آيات الكرسي والمعوذتين ثم يدعو لها دعوات الشفاء، وقبل أن يفك أزار اللباس المحتجبة به، عاد إلى

أمها العجوز يقدم لها بعض الإسعافات السريعة في حين مكث صلاح قرب أمه تبلل دموعه جبينها الندي ويوقظ نداؤه الخافت إحساسها الباطني، فتتحرك أطرافها ملبية نداءه وهي تحكّ بيديها عينيها المشحونتين بهول الصدمة، فبدأت تفيق شيئا فشيئا على صوت صلاح وهو يردّد على مسمعيها مقاطع مؤثرة من الآذان.

اطمأن عمران على سلامة زوجته، ثم استأذنها في الخروج إلى المدينة للبحث عن سيارة الأجرة فأشارت له بيدها موافقة رأيه، وبعد دقائق عاد عمران ومعه سيارة الأجرة التي حملت العجوز إلى مستشفى المدينة وهي في غيبوبة من وطأة المرض الثقيل وامتداد الصوم الذي فرضته العزلة على معدتها أياما وليالي.

ꕥꕥꕥ

في دار الشرطة جلس المحافظ وراء مكتبه يتفحص أحد الملفات بينما كانت نجمة تجلس قبالته على الكرسي الخشبي في ارتباك ملفت للنظر، تأملها محافظ الشرطة مليا ثم قال لها:

- لقد كنا في مركز البريد زملاء، كنت القابض المسؤول وأنت الموظفة المكلفة بالمحول الهاتفي. فهل نحافظ على عهد الزمالة ونتحدث في صدق.

قالت نجمة في نفسها:

- ماذا يريد مني هذا الماكر، هل اكتشف شيئا يدينني.

(ثم أجابته مجارية حديثه في نفس السياق).

- ولكنك يا سيدي غيرت مهنتك ولم تعد لك صلة بمركز البريد.

- لأن مدة العطلة السنوية التي اشتغلت فيها نيابة عن قابض البريد انتهت فتركت له منصبه، وهكذا الأيام يداولها الله بين الناس.

قالت له نجمة:

- إنك لم تخبرني بأنك تشتغل في حقل الشرطة رغم المدة التي قضيناها سويا في العمل أو خارجه...

أشعل سيجارة من العلبة أمامه ثم رد عليها في هدوء:

- نعم لم أخبرك بوظيفتي الحقيقية ولكنك أنت أيضا لم تخبريني عن أشياء كثيرة.

قالت له نجمة في تحد لين:

- مثلا؟

قال لها في هدوء وهو يركز بصره في عينيها:

- وظيفتك الحقيقية يا نجمة: ما هي؟

حاولت السيطرة على فرائصها المرتعدة ثم أجابت في صرامة عجيبة:

- أي وظيفة غير التي تعرفها أنت، ويعرفها كل الناس، موظفة بسيطة في دار البريد.

قال لها وهو يمد لها علبة السجائر:

- عفوا، نسيت، تفضلي سيجارة يا نجمة.

أشارت بيدها في امتناع:

- لا ، شكرا ، لا أدخن.

سألها المحافظ عمر:

- هل يقطن معك شخص غيرك؟

- لا.

- ومن دخّن السجائر التي وجدنا لها أعقابا كثيرة في المطفأة الموجودة على الطاولة الخشبية السمراء المنحوتة...

دهشت نجمة لقوله فقامت سائلة:

- من أخبرك بهذا؟

قال لها محافظ الشرطة عمر:

- لقد زرنا بيتك ضحى اليوم.

اصفر وجهها ثم احمر وعاد بعد ذلك إلى صفرته، فقالت في انفعال:

- ومن سمح لكم بدخول بيتي أثناء غيابي؟

قال لها المحافظ ويده تمد لها علبة السجائر مرة ثانية:

- كان ذلك أمرا من وكيل الدولة بتفتيش بيتك، مسكت العلبة وأخرجت سيجارة من داخلها ثم أشعلتها بمساعدة المحافظ، صمتت برهة، حاولت أن تقرأ خلالها في ملامح المحافظ أشياء كثيرة وكأنها تريد أن تستكشف ما يجول في باله من أفكار وخواطر.

سألته قائلة:

- هل أستطيع معرفة سبب تفتيش بيتي؟

قال لها المحافظ:

- نعم، لكن لن يتم لك ذلك إلا في الوقت المناسب، وبعد التحقيق تعرفين كل شيء ولهذا أتمنى أن تكون إجابتك صريحة.

اتّخذت العائلة الصغيرة بيت العجوز مسكنا لها بعد أن تعاون الثلاثة على تنظيفه وتهيئته لإقامتهم، عاد شيء قليل من بهاء البيت القديم الذي شهد الأفراح والأقراح معا، سكنت في أركانه غمائم سوداء حزينة لا يراها إلا من عانقه الشوق والألم والحسرة التي نام في كنفها هذا البيت عند غياب سكينة، وبعدها كمال ثم غياب عقل صاحبته، الأم التي توسدت الشقاء شهورا وشهورا.

نامت الأم على السرير بمستشفى المدينة فاقدة الوعي... مخدرة الإحساس، رغم بعض الإسعافات التي نالها جسمها الهزيل من بعض الأدوية التي قدّمها أولو الضمائر الحيّة من الممرضين والممرضات، الجميع يرتدون أزياء بيضاء لكن بياض المظاهر لا يرافقه بياض في المخابر، والمحزن أن يخفي البياض سوادا قاتما تحته.

كان عمران وزوجته، يطيلان الإقامة بجانبها أثناء الزيارات في انتظار زيارة لحظة انتعاش للجسم المريض.

ابنتها تحتسي مرارة الندم في صمت حتى ظهرت على ملامحها آيات الحزن، تلجأ بدعواتها إلى الله في أوقات الشدة النفسية التي كانت تنتابها، تطلب العفو لها والشفاء لأمها.

وقف عمران إلى جانب زوجته يتأملان بعض الحركات البطيئة التي ينطق بها الأمل من حين لآخر في جسم المريضة، تأملته كثيرا كأنها تلتقي به لأول مرة، تذكرت يوم اللقاء فقالت تحدث نفسها:

- خرجت من حلقة الدرس في المسجد في الوقت الذي أطلق سراحه وعاد إلى بيت أخته التي كنت أقيم عندها، والتقينا على عتبة دارها، غض بصره وتأخر خطوات فدخلت البيت مسرعة، قلت لها:

- إن شخصا غريبا على الباب!!

قالت أخته:

- من يكون يا ترى؟ هل يكون هو؟!

- من يا خالتي؟

- ربما أخي، عمران؟ وا فرحتاه..!

خرجت صاحبة البيت مستبشرة وعادت معه فرحة ضاحكة:

- السلام عليكم.

فاهتزت جوانحي وخفق قلبي واقشعر جسمي طربا وهو يقرأ بعد السلام سورة العصر، فحمدت الله على شيء لم أكتشفه وقتئذ؟ خرجت إلى غرفة المطبخ في ارتباك لذيذ، وأنا أسمعه يطلب من أخته شيئا من الماء للوضوء ثم يقول:

- لنؤدي ركعتي الشكر جماعة يا أختاه.

قالت سكينة وقد عادت إلى واقعها:

- سنقوم بالصلاة جماعة من أجل أمي يا عمران.

فأجاب عمران:

- إن شاء الله (ثم قال مازحا) ومن أجلك أيضا لأنك عدت من تفكيرك سالمة.

قالت:

- لقد ذهبت بعيدا (وخفضت صوتها قائلة):

- عدت بذاكرتي إلى يوم لقائنا.

توقفا عن الكلام وهما ينظران في طرب إلى أهداب الأم المريضة ترتفع عن بعضها قليلا لتؤذن بعودة النور إلى عينيها المغمضتين... إلى عالمها المظلم.

نادت زوجته:

- أمي، أمي ، الحمد لله، أنا ابنتك.

فتحت الأم عينيها قليلا ثم عادت إلى غيبوبتها ، قال عمران:

- لا بأس، إنها بدأت تنتعش وتعود للحياة من العالم الذي كانت تعيش فيه.

وبعد يومين، حان موعد الزيارة فعادت ابنتها وزوجها إلى المستشفى، ، اهتزت أوصالهما ابتهاجا أمام سريرها:

- لقد فتحت عينيها وعادت إليها الحياة، انظر يا...

- الحمد لله.

كانت تنظر إليهما في شرود رغم نداء سكينة وقبلاتها، لم تعرهما أي اهتمام وانشغلت عنهما بالنظر إلى سقف القاعة

تتأمل المصباح، كأنها تقرأ في توهّجه مذكرات القرون التي عاشتها على صهوة جواد أصيل، تحمل راية العزّة والنصر.

مـرّت إحـدى الممرضـات تجـر نعليهـا في اختيـال فتقـدمت نحوها سكينة سائلة:

- هل قالت لكم أمي شيئا؟

- لا، سوى بعض الكلمات التي كنا نسمعها تهذي بها من حين لآخر.

- مثلا...؟

- كانت تقول:

- اقترب يا كمال، ، السماء حمراء، الثعابين، وشيء من هذا القبيل.

- ألم تذكر اسم سكينة؟

- بلى، لقد ذكرته عدة مرات، فمن تكون سكينة؟!

- أنا، ابنتها.

قالت الممرضة في تعجب:

- أنت ابنتها، لا أكاد أصدق بأن لهذه العجوز التي كانت توسد الأرصفة شهورا عديدة أقارب، لقد كانت أمك تمثل مأساة المرأة بل الإنسانية كلّها.

واصلت الممرضة كلامها وسكينة تعض شفتيها في صمت مرير والندم يملأ عينيها:

- أنصحكم بالتوجه بها إلى مركز الأمراض النفسية عندما تسترد قليلا من حيويتها الجسمية.

سألتها سكينة:

- أين يوجد هذا المركز؟

استدركت الممرضة وأجابت قائلة:

- إنه مستشفى صغير قرب العاصمة، لكن لا يدخله إلا "الذوات" ولا أظن أنكم تستطيعون الفوز بسرير لها هناك.

- وما العمل إذن؟

- مستشفى الأمراض العقلية ليس بعيدا...

قاطعتها سكينة:

- لكن أمي ليست مجنونة، إنها صدمة، إني متأكدة بأنها صدمة نفسية تحولت إلى انهيار عصبي ولو وجدت العناية من البداية لما وصلت إلى هذه الحالة.

قالت لها الممرضة:

- نصيحة أخيرة، أكتبوا لها حرزا عند بعض الشيوخ أو خذوها إلى قبور الأولياء كضريح سيدي الهواري أوسيدي راشد أو....

قاطعتها سكينة بحزم هادئ:

- إن ما تقولين يمس بعقيدة التوحيد، بل هو شرك بالله عز وجل، ومثل هذه الأمور هي التي أخّرت الأمة الإسلامية وأدت بها إلى الحالة المرضية التي تعيشها.

انصرفت الممرضة ولسانها يقول في تلعثم:

- أنا لم أفهم كلامك هذا، أحدثها عن أمها وتحدثني عن الأمة، من المريضة الأولى أم الثانية... ؟!

عـادت سـكينة إلى زوجهـا عمـران وقصّـت عليـه مـا جـرى بينها وبين الممرضة من حوار، فقام واقفا أمامها وجها لوجه:

- مـا رأيـك يـا سـكينة؟ بعـد أيـام سـتزور أحـد الأطبـاء النفسانيين وإذا لم تتحسن حالتها سنأخذها معنا.

- إلى أين يا عمران؟ إلى الصحراء؟!

- نعـم إلى الصـحراء المقدسـة، إلى بيـت الله الحـرام، ألم نتفق السنة الماضية على الذهاب لزيارة مهبط الوحي...؟

- بلى، قد اتفقنا.

- لنرافقها إلى أرض الأنبيـاء لتسـتعيد الإنسـانية الطـاهرة هناك، وستعرف الشفاء هناك بإذن الله.

قالت زوجته ووجهها يفيض بشرا:

- التاريخ يعيد نفسه، هكذا انتعشت نفسي منذ سنوات بحب الله والإيمان بقضائه، فأضاءت عالمي المظلم بنور الهداية، وآنسـتها مـن وحشـتها بحضـورك رفقـة ملائكـة الرحمـان، فلترعاك العناية الإلهية أيها الزوج الطيب.

❁❁❁

5

اعترافات جاسوسة

فتح محافظ الشرطة ملفا ووضع فيه بعض الوثائق ثم حدث نفسه قائلا:

- ((لقد هوى من اتّبع الهوى))

ثم أمر الشرطي بإحضار نجمة بغية إتمام التحقيق معها.

وبعد برهة قصيرة من الزمن دخلت نجمة مكتب المحافظ وجلست على الكرسي في حركة استفزازية... صمتت قليلا ثم نطقت قائلة:

- هذا ظلم لا أسكت عنه.

وضع المحافظ يده على سماعة الهاتف مخاطبا إياها:

- أي رقم تطلبينه لينقذك من الظلم يا نجمة؟

أعادت له السماعة التي تناولتها منه وهي تهدده من مركز قوة غريبة:

- سأعرف الوسيلة التي أستعيد بها حقّي، بل سأنتقم له.

ضرب عمر يده على المكتب منفعلا، وقال مخاطبا نفسه وبصوت مسموع:

- النساء نساء، طبعهن غريب ولو بلغن من العلم الكمال.

واصل حديثه لنفسه في صمت:

- ((النصر لنا... وهمّ صغير يكبر في أعماقنا كل يوم ككرة الثلج المتدحرجة من القمم العالية، أحلامنا صخرة من ثلج، وما أوهن الثلج أمام غدر المطر،،،))

عاد لمخاطبتها سائلا في نبرة تحمل أبعادا مختلفة:

- إن سكينة عادت من غيابها الطويل، ألم تزوريها؟
- أنا لا أخالط أصحاب الرذيلة.

انفجر المحافظ ضاحكا، حتى أثارت قهقهته تعجب الأعوان الذين تعوّدوا جدّيته، ثم قال في استغراب:

رمتني بدائها وانسلت، نعم، أنت التي دفعت بها إلى ذلك، لكنها اليوم من أصحاب الفضيلة.

وقف المحافظ مواجها النافذة المطلة على الحديقة، ثم ما لبث أن التفت نحو نجمة على حين غرة وهو يقول في صرامة هادئة:

- لقد عرفنا كل شيء، فما عليك إلا أن تعترفي يا نجمة.

قالت في استنكار:

- بأي شيء أعترف؟
- المخدرات، من كان يشاركك في تسويقها ولمن؟

بهتت نجمة بالحقيقة، ثم قالت وهي تحاول جمع ما تبقى لها من جرأة:

- أي مخدرات، إني بريئة.

قال لها المحافظ عمر:

- لا ترهقي نفسك بمحاولات الهروب من الأسئلة، قلت لك إننا نعرف كل شيء.

- ماذا تعرفون أيها المحافظ؟

- زوجك (إيلمون) اعترف بكل شيء.

- أين هو؟

لقد قبضت عليه الجمارك وهو يحاول تهريب كمية كبيرة من المخدرات إلى داخل الوطن.

(صمتت نجمة في حيرة كبيرة) وواصل المحافظ حديثه قائلا:

- لقد أخبرنا زوجك بأن كميّة أخرى توجد في بيته على سقف الحمام، وهاهي قد أحضرناها من هناك عندما وقع التفتيش، لكننا لم نجد مما ذكر زوجك إلاّ قليلا.

فتح المحافظ خزانة كانت وراء مكتبه، وأخرج منها كيسا صغيرا قدمه لها:

- انظري ما يوجد داخله.

قالت في هدوء غريب:

- إنها مخدرات.

- هل يكفي هذا الدليل لتقولي البقية من الاعترافات دون لف أو دوران.

وقفت نجمة قائلة في عناد سافر:

- لا أقول شيئا ، لا أتكلم والمحامي غائب.

- من حقك توكيل محام وهذا الهاتف أمامك فاطلبي أي محام تريدين، أنظري هذه قائمة المحامين بعناوين مكاتبهم وأرقام هاتف كل واحد منهم.

- لا ، إني أريد الاتصال بالمحامي شخصيا وفي مكتبه.

قال المحافظ:

- لا يتم ذلك، لا نستطيع السماح لك بالخروج وأنت لم تقولي شيئا رغم أن البيّنة ظاهرة والحجّة ثابتة.

قالت في انفعال متصنع:

- ماذا تريدون مني أن أقول؟

قال عمر بسرعة:

- الحقيقة، قوليها عن طواعية، ربما تنالين تخفيفا في العقوبة.

ثم واصل حديثه بعد برهة قصيرة من الصمت، استوقد خلالها نارا في رأس سيجارة وقدم أخرى لنجمة:

- من كان يشتري منك المخدرات؟

قالت بعد تردّد كبير:

- هفمان، هفمان هو هو الذي كان يأخذها من عندي ولا أدري لمن كان يبيعها.

- ألم تسأليه عن الزبائن؟

- كنت أسأله عن النقود فقط.

قال المحافظ عمر:

- لقد ذكرتني كلمة النقود بسؤال مهم:

- ألم ترضك نقود المخدرات، حتى لجأت إلى النقود التي كانت ترسلها سكينة لأمها وأخذتها لحسابك الخاص بالبنك.

صمتت نجمة وواصل حديثه:

- ألم أقل لك إننا نعرف أشياء كثيرة عنك.

ثم أخذ ورقة وبدأ يكتب فيها بعض الكلمات وقدمها للشرطي قائلا:

- نفذوا الأوامر في الحين.

حياه الشرطي وخرج، عاد المحافظ عمر يستجوب نجمة التي فقدت كل وسائل الدفاع والإنكار، بعدما تأكدت أن الشرطة اكتشفت أمرها، ها هي قابعة على الكرسي تنتظر الذهاب إلى السجن، يصفر وجهها كحبة الليمون ثم يرتدي لباسا أسودا كسماء يناير وفرائصها كأن بها مس من التيار الكهربائي، قالت في نفسها:

- لماذا أخاف... هؤلاء الضّعاف ونحن قوة، وما سجني أو شنقي في سبيل هدفي إلا شرف قبل أن يكون واجبا.

قال لها المحافظ:

- هل تريدين أن تقولي شيئا؟

- وهل ينفع الكلام معكم!

ابتسم قليلا:

- لنتحدث حديث العامة، ألم نكن زملاء في المهنة مدة شهر كاملا ؟

- إن ذلك وهم لا أريد تصديقه، لقد كنت تتجسس حولي وأنا في غفلة.

سألها في شيء من الغضب:

- ما هو الخطر التجسس على شخص واحد أم التجسس على أمة بكاملها؟

- لم أفهم ما تقوله.

قال لها:

- تعرفين وتفهمين كل شيء، اعترفي ولا داعي لأن أستعمل معك وسائل أخرى حتى تقري:

دخل الشرطي محيّيا قائلا:

- لقد أحضرناها يا حضرة المحافظ.

- دعوها تدخل.

فتح الباب فدخلت امرأة في زيّ محتشم، حيّت الاثنين:

- السلام عليكم.

رد عمر التحية مبتسما بينما أطرقت نجمة برأسها إلى الأرض وهي تقول في نفسها:

- ماذا أقول لسكينة الآن وقد وجدت أمها في تلك الحالة من الإهمال...

فوجئت سكينة بوجود عمر الشرطي الذي استجوبها منذ شهر في معمل التعليب بالصحراء وقد رأته الآن في منصب محافظ الشرطة، شعر عمر من نظراتها بما يدور في خلدها فقال لها موضحا:

- مهمة التحقيق هي التي تجبرنا على انتحال الأسماء، من صحفي إلى شرطي والحقيقة أنك تقفين أمام المحافظ، تفضلي اجلسي.

لقد أحضرناك لنعرف بعض الأشياء قد مضت.

- "نعم، الماضي بذرة تنمو في حاضرنا" قالت ذلك بلغة الصمت، ثم جلست.

- هـل وصـلت الحـوالات البريديـة والرسـائل الـتي كنـت تبعثينها لأمك؟

- لم أجـد لهـا أثـرا عنـد أمـي، مـع أنهـا وصلت فعـلا إلى مركـز البريد القريب من البيت.

نظر المحافظ وسكينة إلى نجمة التي كانت تمسك رأسها بيدها اليمنى وقد أحست بثقله، كأنها تحمل فيه رأس أبي الهول.

طلب المحافظ من المرأتين الانتباه إلى الأسئلة التي يطرحها:

- في يوم ما قد مضى خرجتما مع هفمان وكمال إلى شاطئ البحر، وتناولتم هناك وجبة الغداء ثم شربتم عصير "فانتا"، أليس هذا ما صرحت به يا سكينة أثناء التحقيق في المعمل؟

- بلى، وقع هذا في ذلك اليوم المشؤوم منذ...(راحت في تفكير طويل)

وجّه كلامه إلى نجمة التي كانت تمسح حبات العرق الذي بدأ يتقاطر من جبينها:

- هل حدث ما ذكرته يا نجمة؟

- نعم، وما العجب في ذلك؟

قال:

- بعد أن قدّم هفمان زجاجة"الفانتا" لسكينة وشربت ما فيها أحست بنوع من الإغماء، تمالكت توازنها بصعوبة ولكنها أصبحت غير واعية لما يحدث لها صحيح يا سكينة؟

- نعم.

هزت نجمة رأسها في إيجاب، بينما سألت سكينة المحافظ:

- من أخبرك بذلك؟

أخرج المحافظ ظرفا فيه رسالة، قائلا:

- هذه رسالة أخيك كمال، كتبها لعدنان النفطاوي قبل... ذكر فيها ما قلت الآن.

أطرقت سكينة ودموع الألم على أخيها تنزف من فؤادها وقالت بعد حين:

- فليرحمك الله يا أخي.

قال المحافظ:

هل تعلمين يا سكينة ماذا شربت مع العصير؟

قالت في اندهاش:

- لا ، لا أدري.

- إنك شربت مسحوقا من مادة مخدرة، وضعت خصيصا في زجاجتك.

فتحت سكينة فاها في اندهاش كبير وكأنها تتذكر أشياء كثيرة ألجمت ذاكرتها سابقا:

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله، ماذا تقولين لخالقك يا نجمة يوم الحساب؟

واجهتها نجمة قائلة في عنف:

- هفمان هو الذي وضع لك المخدر.

قالت سكينة متذكرة:

- لكني لا زلت أتذكر بأن عصير "الفانتا" كان موجودا في بيتك قبل خروجنا إلى البحر بيوم أو يومين، أنت، أنت سبب شقائنا منذ الأزل يا نجمة.

تدخل المحافظ:

- لو كان هفمان حيّا، ما تحمل منك هذه الاتهامات يا نجمة.

وقبل أن يؤذن لسكينة بالانصراف سألها عن حال أمها، معتذرا لها عن عدم زيارتها بسبب غيابه عن المدينة، استغفرت سكينة ربّها بعد تنهيدة مسموعة ثم قالت:

- لقد بدأت تتحسن حالتها الصحية رغم الإهمال الذي لقيّته.

سألها وعيناه تحومان حول نجمة:

- والجيران؟

نظرت سكينة نحوها مليا ثم قالت في كلام مقصود:

- لقد فتكت المدينة بالروابط الاجتماعية حتى صار الجار لا يعرف اسم جاره بل يتركه في الشدائد يصارع الألم وحده.

ثم صمتت تنتظر من نجمة تبريرا لمواقفها من أمها، لكن نجمة لاذت بالصمت فاستأنفت سكينة حديثها:

- لقد كان نبينا الكريم يزور جاره اليهودي عندما يمرض. وجد عمر الفرصة مواتية للوصول إلى جوهر التحقيق ولب القضية، فسأل نجمة في أسلوب ساخر:

- ألا تنصّ التوراة على حقوق الجار يا نجمة، ألم تقرئيها في الوصايا العشر؟

- ... (صمتت نجمة)

أمضت سكينة على محضر أقوالها وانصرفت بإذن من المحافظ الذي أخرج من درج مكتبه كتابين وميدالية ذهبية، قائلا في حيرة وأسى:

- تفضّلي يا نجمة، خذي ما تريدين، عثرنا عليها في بيتك.

حملت الميدالية الذهبية التي كانت تحمل رسم "نجمة سداسية" وبعض الكلمات والأرقام ثم حملت بيدها الأخرى أحد الكتابين، كان يحمل عنوانا عريضا اسمه "التوراة" فتحته في الحين وبدأت تقرأ منه بعض الكلمات.

صمتت فجأة لتسمع إلى صوتها ينطق من شريط مسجل، إنه همس من حديثها الذي كانت ترسله عبر أسلاك الهاتف إلى أحد المراكز الأجنبية بالخارج، يحمل معلومات سرية عن نفسية المجتمع وعلاقاته الداخلية وعاداته وتقاليده ومبادئه.

أوقف المحافظ صوت الشريط وتوجّه إلى نجمة سائلا:

- ما هي المنظمة التي كنت تبعثين لها هذه الحقائق؟

- محطة أورشليم.

- أين توجد؟

خفضت رأسها قليلا تنظر أرض المكتب، ثم قالت في صوت غاضب:

- في أرض الميعاد.

قال لها:

- كيف تحصلت على هذه الميدالية السداسية؟

قالت وبصرها غارق في تفقد أثاث المكتب:

- أثناء حضوري في المؤتمر العبري. والكلمات المسجلة عليها تؤكد قولي إن كنت لا تصدق...

قاطعها قائلا في سخرية:

- لا، لم أكذبك، يا بطلة الألعاب السياسية.

- رأيتك تقطّب حاجبيك فظننت أنك لا تثق في كلامي.

ابتسم قليلا:

- إن تقطيب الحاجبين عادة ورثتها عن جدتي، تبدو كلما أحسست بأن مخاطبي يحدثني بلغة تسمعها أذني ولا يدركها فهمي!

لم تفهم نجمة ما تعنيه جملته الأخيرة، كان تفكيرها معلقا في البحث عن طريقة للخروج من الورطة التي وقعت فيها دون أن تدري، قوى المجابهة لإخفاء الحقيقة بدأت تنهار في أعماقها والمحافظ يفاجئها من حين لآخر بدليل جديد يؤكد

اتهامها ويلبسها ثوب الفضيحة، فاستسلمت للأسئلة بعد تهرب ومدارات عديدة. حمل المحافظ الكتاب الموجود أمامه قائلا في لهجة استفهامية مقصودة، تحمل معاني كثيرة:

- هذا الكتاب وجدناه في خزانتك مع التوراة والميدالية، فلما لا تأخذينه الآن معهما؟

- إنه كتابكم، فاحمله أنت إن شئت.

قال المحافظ عمر في نبرة جادة:

- إنه كتاب الله، أنزل ليحمله جميع الناس، لا ريب فيه، هدى ورحمة للعباد.

فتح عمر الكتاب، كان مصحفا من القرآن الكريم، تبدو على سطوره بعض جرّات القلم والتشطيبات وعلى بعض الصفحات كتبت عبارات جديدة بقلم الرصاص... قال عمر وهو يقلب صفحات الكتاب:

- من أمرك بهذا؟

قالت في عفوية مصطنعة وكأنها لم تعي قصده:

- ماذا أيضا؟

- من أمرك بتحريف كتاب الله؟

قالت في هدوء واطمئنان غريبين:

- كنت أحاول أن أحدث تزاوجا بين القرآن والتوراة؟

- هل هي محاولة فقط أم أنك وقّعت عقد الزواج وأقمت العرس في غياب الأهل؟

أجابت في ارتباك:

- لقد تم طبع القرآن على الوجه المرسوم أمامك، إنه في المكتبات الآن يتنفس هواء رفوفها بل قرأه الكثير من....

قال في تعجب:

- إنك تعترفين وكأنك قمت بعمل نبيل.

- نعم، لقد قمت بواجبي الوطني وكان الدافع لذلك هو الدين، ، من أجل التوراة والوطن فعلت ما فعلت.

نظر المحافظ في ساعة يده، كانت تقترب من السادسة مساء، رجل يقارب الأربعين من العمر، يلبس بذلة سماوية اللون ، أسود الشعر بارز الحاجبين، قصير الشارب، تبدو على محياه

علامات الرضا والاطمئنان، وضع القلم جانبا وأمسك بمقص صغير كان على المكتب فأخذ يراود جناحيه قائلا لها:

- قبل أن أغلق المحضر أريد أن أنصحك.

- ....

- لا تتعبي نفسك مرة أخرى في مثل هذه الأمور التافهة.

- (فضلت السكوت ولم تجبه)، هذه نجمة التي عاشت أيامها تعمل في صمت، كانت تجلس أمامه في لباسها العاري الكتفين، تقاسيم جسمها البدين تنطق بالفتنة الصاخبة...

استأنف حديثه بعد أن انتظر قولا منها فلم تنبس شفتاها بحرف واحد:

- لا تستطيعين أن تبلغي غايتك مهما حاولت، وعندئذ ستشعرين بالخيبة، ،

قالت:

- لماذا؟

- لأن يدك لا تصل إلى الصدور التي تحفظ في باطنها القرآن، وخاصة صدور الشباب.

ضحكت في استهزاء وتحد سافرين:

- شبابكم كشيوخكم، موتى لا ينتظرون النهاية بل يستعجلونها بالانتحار النفسي، وهذه غاية سعينا من أجلها نحن أحفاد بني....

- يا لك من داهية ضالّة، ، ، هل أخبرك بأن صلاح الدين الأيوبي لم يمت لأن صلاح عمران في شجاعته وإيمانه، وإني متأكد بأن أمثاله لا يعرفون سوى نوعا واحدا من الموت هو الشهادة.

❻

حـــوار مـــرّ

شـدّت العائلـة الصـغيرة رحالهـا لأداء العمـرة، وفي رحـاب البقاع المقدسـة وضـعت الأم المريضـة يمناهـا تحـت مرفـق ابنتهـا ويسراها بيد صلاح الصغيرة واقفين أمام البيت العتيق وخلفهم عمران يكبّر وذروة الخشوع تشمخ في كيانهم، علت الأصوات بالدعاء، بالرجاء والأمل وهطلت دموع الإيمان والرحمة، دموع الحب ساعة اللقاء،،،

كانت جوانحها ترتعش تسبيحا وابتهالا ، كأنها بعث في جسمها النحيف تيار سحري فتمكث الساعات تنظر إلى السماء في جلوسها وسيرها وتنادي أسماء من حين لآخر ثم تردّد كلمات شتى، تنادي ابنها كمال وسكينة فتجيبها سكينة:

- نعم يا أمي، لقد عدت إليك....

وتجيبها روح كمال على لسان صلاح:

- حاضر يا جدّتي ماذا تريدين؟ أنا معك، قلبي معك، روحي معك.

تتأملهم كثيرا وهم يدعون لها بالشفاء، وعقلها شارد يبحث في محيط الكون عن مرفإ هادئ يستقر به إلى الأبد، نأت عنها القهقهات المتكررة والحركات الغريبة وبدأت تعود لها نفحات من الهدوء والاتزان.

- هل كان خالي كمال يشبهني يا أمي؟

وتصمت سكينة في أسى وقد تراءى لها طيف أخيها كمال مقبلا يبتسم لها في غمرة الحب الأخوي، فتذكرت حديثهما في آخر لقاء بينهما قبل أن تفرقهما يد القدر، لم تكن تدري آنذاك أن الغيوم السوداء التي تلبد وجه السماء

بالحزن في فصل الشتاء كانت تنزل إلى الأرض وتسكن في أعماق أخيها، وعندما تمطر السماء يحس برغبة شديدة تدفعه على البكاء فيكبتها خشية أن يتهمه الآخرون بالضعف، مكتوب أن يكبت رغبته في الدموع كما كبت قلبها آلاف الرغبات، حياته كلها ممنوعات، البكاء والضحك، والابتسام والحرية، والحق والحب، الغريزة والهواية وأشياء أخرى،،،

كان يريد الخروج من جلده، من الطوق المحيط بنفسه المعذبة تحت كفة الميزان الثقيلة، يكره الموت لكن راحة الموتى تعجبه، فيلجأ إلى فراشه، إلى أحلامه،، لم تكن تدري أن ذلك آخر كلام معه عندما سألته مازحة:

- لماذا تمكث قابعا أكثر أوقاتك يا كمال؟

رد عليها كمال في الحين:

- لأن الوقوف ممنوع والجلوس حرام...
- لم أفهم قصدك.
- ولا يجوز لك أن تفهمي يا أختاه.

- ممنوع ذلك أيضا أم حرام؟

- ....

واصلت حديثها ملحة في سؤالها وكأنها تبحث عن شيء في سريرة كمال الخفية:

- لماذا لا تقف ولا تجلس كالناس؟

أجابها بعد تفكير قليل:

- إن نبات "الفطر" إذا رفع رأسه يقطع وإذا بقي في الحضيض يداس.

- الذي يراك قابعا في جلوسك يظن أنك مصاب بمرض الإسهال.

قال كمال في حسرة ومعاناة:

- نعم وإني هكذا لأطرح فضلات همومي.

- لكن التقيؤ أسرع وأحسن لطرح الهموم يا كمال.

- ذلك عندما تكون الحنجرة سليمة وصحيحة.

قالت سكينة في اندهاش مفتعل:

- ماذا أصابها أيضا؟

- تفاحة آدم تعفنت من كثرة السكوت، ،

- ارفع خطابا مكتوبا إلى الهيئات والمجالس الدولية...

ضحك كمال في سخرية ثم قال في انفعال:

فوهة تحييني بطلقتها خير من ألف خطبة ووعود.

- يا للشعر من كمال، ألم تحتفظ بشيء من الثقة لهذا العالم؟

- وأي ثقة يستحقها هؤلاء الصعاليك الذين جمعهم التاريخ في قصر مشيد بالهياكل البشرية، ينهمون من الرزايا بلا كلل فلا أرواحهم تعففت ولا بطونهم قنعت.

استحضرت سكينة كثيرا من الذكريات التي عاشتها مع أخيها كمال في عهد الصبا وراحت تسترجع بعض الصور المعبرة والأفكار المتنافرة التي أغرقته في بحر التشاؤم والقنوط حتى أودت بحياته.

سألها ابنها صلاح مكررا استفساره:

- هل في خلقي ما يشبه خالي؟

أجابت وهي تعود من ذكرياتها مع كمال:

- نعم، بينكما شبه كبير يا بني، في لون البشرة وشكل الجبين والعينين.

قاطعتها الأم فجأة في كلام هادئ:

- أين نحن يا سكينة؟ متى عدت؟

هتفت سكينة وهي تقبل جبينها وتحتضنها كأنها التقت بها الآن فقط:

- أمي، نعم أنا سكينة، هل عرفتيني؟ يا رب، ،

- أين أخوك؟

أجابت سكينة على الفور:

- إنه مسافر يا أمي هذا ابني صلاح يخلف مكانه، إلى أن نجتمع به.

في مكتب قاضي التحقيق المكيّف هواء، جلست نجمة على الكرسي الجلدي الوثير وهي تتأمل الخريطة المنسقة في إطار خشبي على الجدار خلف مكتب القاضي الذي لاحظ عليها ذلك لأول وهلة فسألها قائلا:

- عالم صغير نعيش فيه الحروب الكبيرة، هل هذه غاية وجودنا فيه؟

- ليست لي هواية في المناقشة الفلسفية.

فتح قاضي التحقيق ملفا أمامه وبدأ يتفحصه وهو يتفوه بكلمات متباعدة:

- إذن فلنتكلم في الجغرافيا.

وضع نظارتيه على مكتبه وقال:

- ماذا تمثل الخريطة، التي وجدت في بيتك، وكنت ترسمينها أثناء العمل بهوامش الطوابع البريدية.

قالت نجمة في ابتسام غامض وبصراحة مباغتة:

- إنها دولتنا، بحدودها التوراتية.

- دولـة شـبه عالميـة، لا تخطـر علـى بـال، ولمـن تتبرعـون بالبقية الباقية من اليابسة؟

- أظن أنها للدولة القرآنية.

- لا، إنك مخطئ في زعمك، إذا صار لنا جوار فلا يكون لغير الصليبية أولا والشيوعية أخيرا وليس بينهما شيء.

مرت لحظات صمت قصيرة ثم استأنفت حديثها:

- يبدو أنك مندهش، ،

قاطعها قاضي التحقيق:

- لست مندهشا لتصريحك الحالم، لأني متأكد بأنكم لن تتمكنوا في الأرض فالله يورثها عباده الصالحين، دهشتي من الطريقة التي تتحدثين بها وكلك ثقة، كأنك لست متهمة بأمور جنائية خطيرة، أنت معترفة بها. لقد وقعت في الشباك برجلك فحاولي أن تدافعي عن نفسك يوم المحاكمة... قضيتك ليست بالبسيطة التي تتراءى لك.

قالت في هدوء تام تصاحبه سخرية ظاهرة:

- شكرا على النصيحة، ولأطمئنك، الأستاذ هنري المحامي، سيتولى الدفاع عن موقفي وأنت تعرف جيدا من هو هنري.

قال لها:

- لقد عرفتني التحركات أن هنري له علاقة خاصة بك أو الأحرى أنت لك علاقة خاصة بالأستاذ هنري رغم اختلاف المعتقدات بينكما.

وبدأ يقرأ محضر الشرطة بحقائقه المزدحمة، الاتهامات الثابتة والحجج الدامغة،،،،

كانت نجمة تنصت في شرود بال وسكون حواس، مستسلمة لتفكير طويل ثم قدحت عيناها شررا فجأة، فتطاير في كلمات خرجت من فمها كاللّهب:

- لا، هذا ليس صحيحا، إرهاب قضائي، تزييف مسقط رأسي.

- ماذا تعنين؟

قالت نجمة:

- كل ما قلت صحيح وأنا معترفة به، باستثناء قولك أنني ولدت بفرنسا غير صحيح، حقا إنني ترعرعت في بريطانيا وكانت أحلامي كثيفة كضباب عاصمتها لكن مولدي غير معروف، وإني بيقين لست حفيدة لنابليون.

صمتت نجمة قليلا، ثم قالت مستدركة:

- كانت لي من باريس ولندن هجرة واحـ....

استوقفها قاضي التحقيق:

- الهجرة كلمة شريفة، قولي غيرها.

وقّعت باسمها على محضر الاتهامات بعد إعادة سماع حديثها المسجل، كلمات وعبارات تحمل شروحا وافية وتفاصيل مدققة، أيام المدينة ولياليها أفراحها ومآسيها أمالها وآلامها، نفسيتها وتكوينها، قوتها وضعفها، كان الشريط يحمل أسرارا كثيرة، عن سكان المدينة التي تعيش فيها من

عشرين سنة، لا يسمعه السامع إلا ويغرق في الحيرة والتساؤل عن الغاية منه.

قال المحقّق:

- لم أكن أتوقع أنكم تريدون معرفة كل شيء عن أمتنا حتى نفسية مجتمعنا.

قالت في وقاحة:

- أعرف عدوك فيما يفكر قبل أن تحاربه.

قال وهو يرفع سماعة الهاتف الذي كان يرن بقوة:

- صحيح الحرب خداع، والغزو الفكري أشد من الاحتلال العسكري، لكن،،،

وضع قاضي التحقيق السماعة في أذنه يستمع في انتباه شديد إلى محدثه، ومن الابتهاج فاض وجهه بشرا هلل وكبر وقال المقولة الشهيرة:

- للرجل الذي كان يعيش ضفاف الهادي في أقصى الصين وسمع - بعد صلاته - خبر انتصار المجاهدين في مرتفعات الأفغان.

وبعد حين من الحديث الهاتفي وضع القاضي السماعة بعد أن قال:

- صدقت يا عمر، لقد عاد الغرباء اليوم فطوبى لهم.

قال لنجمة في بهجة:

- لقد عادت سكينة وأمها، قد شفيت من مرضها.

- هذا لا يهمّني.

- سكينة حامل، سيكون لابنها صلاح أخ أو أخت عن قريب.

- هذا لا يهمني أيضا (ثم قالت في غضب) إنك تعمد إثارتي لأني عاقر.

تأسف قاضي التحقيق في لطف جادّ:

- أنت عاقر؟ لم أكن أدري ذلك (وقال مستدركا) أبلغك القول:

- أن سكينة تسامحت في مالها المسلوب منك وتدعوك مقابل ذلك إلى السلم في ظلال الإسلام.

وقفت نجمة مذعورة قائلة في جنون:

- لا... لا كل شيء ما عدا هذا ولو مزّقتني العفاريت في وهج الشمس ما لجأت إلى ظلال دينكم.

ﻫﻫﻫﻫ ⇑⇑⇑ ﻫﻫﻫﻫ

أعلنت الإذاعة والصحف:

- غدا ينعقد المؤتمر الدولي للسلام في المعمورة، قاعة المؤتمرات تغطيها الشعارات، وتحاصرها آلات التصوير، ، الكراسي شاغرة والأضواء باهتة، كان المكان ملهى ليلي ببيروت الغربية غادره روّاده قبل الأوان...

تجاورت المقاعد في قاعة الجلسات العريضة، ،

هذا مكان دولة.... مكتوب عليه اسم سكينة وخلفه خريطة تشبه السكين، ،

وذاك كرسي النظام مرسوم عليه شكل نجمة، ،

وهناك اسم (هفمان) مطروز على مكان الحلفاء... بينما كان اسم عدنان النفطاوي مسجلا على كراسي حكام (بني أمية...))

علّق أحد الصحفيين:

- يبدو أن أم سكينة ستظل واقفة طيلة أيام المؤتمر لخلو هذه القاعة من كرسي مخصص للأمة الإسلامية، ، !!

وقال معلق آخر:

- لقد حضر العم سام هنري إلى المؤتمر مبكرا على غير عادته، ، ، ما أضخم محفظته كأنها تحمل في رحمها جنينا اسمه (الفيتو)... ؟!

بينما كتب أحد المحررين في صحيفة أدبية:

قد تلتقي سكينة في كواليس المؤتمر بنجمة ويجري بينهما الجدل الآتي:

سكينة:

- النصر لنا آت.

نجمة:

- الواقع يخالف قولك.

سكينة:

- حتمية التاريخ تؤكد كلامي.

نجمة:

- التاريخ عبد لمن يصنعه، وواقع اليوم هو تاريخ الغد.

سكينة:

- لنا قوة سماوية تعيننا كل حين.

نجمة:

- بل تخلت عنكم.

سكينة:

- بيننا عقد، والعقد شريعة المتعاقدين.

نجمة:

- لكنكم نكثتم العهد، فتخلت عنكم العناية السماوية.

سكينة:

- قولك ينطوي تحت المذهب الإسقاطي في علم النفس.

نجمة: (تصمت).

سكينة:

- أعني، أنتم الذين أطفأتم مصابيح السعادة في المعمورة فغضبت عليكم السلطة السماوية وحكمت عليكم...

نجمة:

- اشتركنا في المعصية.

سكينة: (تستوضح الكلام بملامحها)

نجمة:

- عصينا الله بتحريف التوراة وعصيتموه بانحراف السلوك، ، ،

سكينة:

- معصيتنا نبتة غرستها أقلامكم في أرضنا فأثمرت سموما...

نجمة:

- كلامك لا دليل عليه.

سكينة:

- راجعي تعاليم داروينكم وفرويدكم وماركسكم وووو...الخ.

نجمة:

- خلاصة القول:

تعادلنا معكم في معصية السماء وتفوقنا عليكم بقوّة الأرض.

سكينة:

وخاتمة القول:

النهاية يصنعها أطفالنا بالحجارة الحمراء عندما يشيّدون للحرية مجدا قاعدته الأقصى وقمّته السماء السابعة...

ويبدأ المؤتمر....

تواردت على المؤتمر برقيات:

الأولى: الضمير العربي ينتحر على طريقة كمال...

الثانية: شهيد اسمه (القدس) يكتب مذكراته بدم البحر الميت...

الثالثة: صلاح وإخوانه يرفعون راية الجهاد بالدم والحجارة.

الرابعة: نصر من الله وفتح قريب.

الخامسة: .....

حان ميعاد الجلسة، في المحكمة التي احتوت في رحابها جميع الأشخاص الذين قدموا مع ضوء الصباح معتصمين بحبل النصر في انتظار ما يسجله القدر من أحكام.

جلس عدنان النفطاوي وراء القضبان الخشبية، يتأمل قفص الاتهام الذي يحيط به حينا، والجمهور الحاضر الذي يحاصره بنظراته وهمسه حينا آخر.

وبعد وقت يسير أدخلت عليه نجمة فجلست بالقرب منه تنظر إلى القاعة المكتظة بالناس، زجرتهم بنظرة حاقدة، ثم قالت بصوت غير مرتفع:

- بهائم سائمة، ، ترعى أخباري.

ثم انتقلت ببصرها إلى عدنان النفطاوي تتأمله من ناصية رأسه إلى أخمص قدميه في نظرات مبهمة لم يجد لها تفسيرا، كانت تركز بصرها على عينيه كأنها تستنطقهما ثم تحوله إلى معصميه، الساكنتين في قيدهما على مضض، بينما كان

المحامي هنري يبعث لها نظرات التشجيع من بعيد، وخيوط دخان سيجارته في سماء القاعة تشكل دوائر خالية.

دخلت هيئة المحكمة فأعلن الصمت، كواهل عظّمهم التدبير، جلسوا فازداد جو القاعة هدوءا وسكونا وتجمّلا بعبير العدالة، الذي كان ينبت في النفوس المضطربة اطمئنانا وارتياحا.

تحول الصمت بعد هنيهات إلى محاورات حادة، وفي غمرة حرارة الموقف اشتدت مرافعة هنري، الذي أطلق العنان للسانه في دفاع مستميت.

نادى قاضي المحكمة على سكينة، مرة ثانية، فلم يجبه أحد، تساءل المستشارون عن سبب غيابها، وقد ظنوا أن في الأمر شيئا مدبرا، لو لا الخبر الذي بدّد الشّك حين تقدم الشرطي بلباسه الأنيق، يحمل في يسراه وريقة خضراء صغيرة، وبعد أن حي رئيس الجلسة مدّ له الوريقة وعاد إلى مكانه قرب الجمهور.

إطّلع عليها رئيس المحكمة بتمعّن ثم نظر برؤية شاملة إلى الحاضرين وهم في صمتهم، يحاولون استنطاق ملامحه للتعرّف على مضمون الوريقة الخضراء التي تنام تحت كفه.

أنقذهم من حيرتهم التساؤلية:

- سكينة على فراش الوضع تنتظر مولودها الجديد.

اهتزت القاعة همسا ولغوا، وعلت بعض الأفراد آيات الابتهاج، ونشوة الاعتزاز بالخبر الذي لم يسر هنري المحامي فأبدى استياءا كبيرا، احمر وجهه غيضا وتندى أنفه عرقا وهو يقترب من موكلته نجمة التي جعلها الخبر حبلى بالألم لأنه ذكّرها بدائها العضال فاحترقت نفسها إلى الأبد، بينما أخذ هنري يطمئنها ويده تلوح بعصا غليظة فأهدت نجمة له قبلة فاترة، ، وهان الدمع عند عدنان النفطاوي فأومضت عيناه مترقرقة بفيضها، ترجرجت على خديه بعد أن تذكر سكينة التي لم تعد سكينته، رغم كل شيء، تذكر المشكلة التي سقى بذرتها بعناده فنبتت مأساة وجرحا في ربيعها وأحكاما قاسية نفتها إلى أعماق الصحراء، ثم أثمرت تلك النبتة محنة حوله يتذوق الآن طعمها المرير.

- أي نـدم ينفـع بعـد أن تمـزق حجـاب الصـبر ففعـل جنـون الغضب ما فعل؟

واصـل القاضـي كلامـه وهـو يمـد الوريقـة الخضـراء إلى النائب العام:

- لنسمع ما تقوله سكينة حول موقفها تجاه القضية.

مسـك النائـب العـام الوريقـة وقـرأ بصـوت مرتفـع البيـت الشعري:

(فنحن جذور الأرض مهما تباعدت

ستحبل منا في المنافي وتثمر)

۞۞۞

واستأنفت المحكمة مداولاتها.............